

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES
(معهد الدوحة)



www.dohainstitute.org

دراسات

العقد الأخير في تاريخ سورية: جدلية الجمود والإصلاح

(١-٥-٥)

محمد جمال باروت

سلسلة (دراسات)

المحتوى

- ٢..... مراحل الحركة الاحتجاجية السورية وتطوراتها وأشكالها (شباط/فبراير - تموز/يوليو).....
- ٥..... المرحلة الأولى: من الإرهابات الأولى إلى خطاب الثلاثين من آذار/ مارس.....
- ٥ اعتصام غير منجز
- ٧..... عود الثقب وعمود الدخان الكثيف: الحريقة أو "الجمهرة المقهورة".....
- ٩..... اعتصامات النخبة أو الناشطين: السفارة والداخلية.. ديناميّة الاعتصام.....
- ١٠..... بين ديناميتين أو شكلين متكوّنين: "الجمهرة" و"الاعتصام".....
- ١١..... حركة شعارات الجدران ومحنة أطفال درعا: مُدَلّون مُهانون.....
- ١٣..... من جمعة "الفرعة" إلى اقتحام الجامع العمري: قومة درعا.....
- ١٣ جمعة "الفرعة"
- ١٧..... اضطرابات ٢٠ آذار/مارس: اعتصام الجامع العمري أو "ميدان تحرير" درعا غير المنجز.....
- ١٨..... بين القوة اللينة والقوة القاسية: حدود الواقعي والمتخيل في نظرية "المؤامرة".....
- ٢٠..... اقتحام الجامع العمري: خطيئة اللغّام.....
- ٢٢..... ما بعد الجامع العمري: انقسام المؤسسة العلمانية السورية.....
- ٢٦..... من "جمعة الغضب" إلى "جمعة العزة": اتّساع الرقعة المجالية للاحتجاجات، والخطاب "المنتظر".....
- ٢٦..... جمعة الغضب: محدودية الانتشار المجالي وعدد المتظاهرين.....
- ٢٧..... جمعة العزة: الانتشار المجالي ارتفاع حجم المشاركة وشدّتها:.....
- ٢٨..... قومة درعا وضحايا الصنمين.....
- ٢٩..... ١- تظاهرة دوما: بروز أول "لجنة شعبية" محلية.....
- ٣١..... ٢- فتنة اللاذقية: على شفا اضطرابات طائفية.....
- ٣٢..... صدمة الثلاثين من آذار.....
- ٣٤..... خلاصة تركيبية.....

مراحل الحركة الاحتجاجية السورية وتطوراتها وأشكالها (شباط/فبراير - تموز/يوليو)

تسمح محاولة إعادة تشكيل الأحداث التي شهدتها سورية منذ ١٧ شباط/فبراير ٢٠١١ حين جرى "تجمهر" الحريقة بدمشق وحتى عصيان حماة المدني الشامل في ٨ تموز/يوليو ٢٠١١؛ ولاتزال تشهدا سورية، وستبقى تشهدا لفترة لا يمكن التكهن بنقطة زمنية نهائية لها؛ بالتمييز الأولي أو ربما الأساسي بين عدة ديناميات اجتماعية اتخذتها حتى الآن. وتتسم الأشكال المتحوّلة والمتغيرة والمتطورة التي تنتجها هذه الديناميات بما هو مشترك ومختلف في وقت واحد، وبما هو يتكرر فيها ويختلف. وهي أشكال "جارية" أو "مفتوحة"، بمعنى أنها لما تزل في مرحلة التطور أو السيرورة المفتوحة القابلة لإنتاج أشكال جديدة "مفاجئة" أو ربما غير "محتملة"، أو تطور أشكال قائمة وتغيرها في ضوء ديناميات جديدة قد تكون "تطورية" بمعنى أنها تتطوي على علاقات سببية مترابطة، أو "مفاجئة" بمعنى انقطاع الترابطات السببية عند نقطة ما، ونشوء دينامية جديدة أو "مفاجئة" لم يكن ممكناً توقعها في إطار منطق السببيات السابقة.

وتتنمي هذه الديناميات بطبيعتها إلى نوع العمليات المتحركة أكثر مما تنتمي إلى نوع العمليات الثابتة. والأساس في فهمها العلمي الاجتماعي هو الانتباه لدور "العشوائي" و"المعقد"، وللحدود المتعرجة والمتداخلة، وللقفزات المفاجئة في تطورها وتغيرها، إذ إن العمليات المتسلسلة بمجموعة أسباب يفضي كل منها إلى آخر تصل إلى نقطة حرجية "مفاجئة" تطلق عمليات جديدة. هكذا يمكن بنوع من تمثيل مجازي لدخان سيجارة بسيطة أن يتحوّل في شرط معين إلى عمود دخان كثيف، لم يقصده أو يتهكن به مشعل السيجارة. وهذا صحيح على المستوى العلمي الإبيستمولوجي البحت كما هو صحيح في التاريخ، وبذلك في الاجتماع؛ فالمؤرخون هم الأكثر معرفة بأنّ نتائج أعمال الفاعلين في التاريخ لا تتطابق مع أهدافهم ومع غاياتهم بالضرورة، بل يمكن في نوع من فلسفة التاريخ أن تشملهم "مخاتلة التاريخ" الهبغلية^(١).

^١ تتأثر هذه المقاربة بنظرية "الفوضى" الإبيستمولوجية: جايمس غليك، نظرية الفوضى: علم اللامتوقع، ترجمة أحمد مغربي، (لندن: دار الساقي، ٢٠٠٨)، ص ١٨-١٩.

إنّ الأشكال التي تنتجها ديناميات عملية التغيير الاجتماعي هي ببساطة الأشكال المتحركة في عملية التغيير الاجتماعي في مرحلة "الجريان" التي تتميز بها المراحل الانتقالية الحادة والكبرى وربما الفاصلة في تواريخ المجتمعات، وتنتسّم هذه المراحل عادةً باهتراء النظام الاقتصادي- الاجتماعي- السياسي القديم، وبروز مؤشرات نظام جديد يقوم على "القطيعة" مع النظام السابق. والمقصود بالقطيعة هنا مفهومها العلمي وليس مفهومها اللغوي، بمعنى أنّ النموذج "المرغوب" في عملية التغيير الاجتماعي في زمن "الثورات"، أي (ما يجب أن يكون) لا ينطلق من مرجعية النظام السابق (ما كان) بل من مرجعية مغايرة أو مضادة، وهذا هو مفهوم القطيعة في منهجيات فهم الثورات الإيستمولوجية والعلمية لعمليات تغير الأنموذجات (Paradigmes) الكبرى التي تحكم إنتاج العلم والمعرفة والأفكار والمدركات.

وفي مثل هذه العمليات المتحركة بالمعنى الإيستمولوجي؛ أو التغيير الاجتماعي بالمعنى السوسبيولوجي، أو التغيير الثقافي بالمعنى الأنثروبولوجي، أو عملية إعادة الهيكلة بالمعنى الاقتصادي، أو التغيير الجذري الشامل بمعنى نظرية الثورات؛ يشنّد الجدل والتأثير المتبادل بين "العوامل" (Facteurs) والفواعل (Acteurs) في عملية التغيير الاجتماعي بمعناها الشامل. لكن كل علم كان يدرسه حتى فترة قريبة من زاوية اختصاصه، بينما تبرز الآن في إطار الثورة المنهجية الحديثة مسألة دراسة عملية التغيير في إطار منهجية عابرة للاختصاصات، سواء أكان ذلك على مستوى "التاريخ الطويل" أو على مستوى "التاريخ المباشر"، والذي يعتبر التاريخ اليومي أحد أشكاله.

إنّ التاريخ المباشر أو التاريخ اليومي ليس مجرد تاريخ تسجيلي لسيرورة الأحداث، يمكن أن ينجزه الصحفي أو المدوّن اليومي لسيرورات الأحداث ووقائعها، بل يمكن أن يكون التاريخ المكتف في مقطع يومي قد يكون عدّة أيام أو عدّة شهور لتاريخ طويل، يمتدّ في الحالة السورية إلى أكثر من خمسين عاماً، ويمكن تمييز فترة العقد الأخير ضمنها بوصفها عملية تحول داخلية تمت في إطار النموذج الذي نشأ وتطور وتحول في سلسلة التاريخ الطويل ذاك؟ وكما يعمل مؤرخ "التاريخ الطويل" على مستوى الفترات الزمنية الطويلة المدى زمنياً مستخدماً كافة المقاربات الممكنة، فإنّ "التاريخ المباشر" يستخدم بدوره هذه المقاربات لكن على مستوى التاريخ اليومي أو المكتف أو حتى المجهري، وهو بالضرورة في حدود هذا البحث تاريخ مباشر، يمثل في حقيقته تاريخاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأنثروبولوجياً وسكانياً مضبوطاً علمياً للمكان الذي تجري فيه أحداث التاريخ المباشر الذي تتكثف فيه نتائج سلسلة طويلة المدى. وكما في كل عملية إيستوغرافية، بالمعنى العلمي لتدوين التاريخ، سواء كان تاريخاً "منجزاً" ماضياً أم تاريخاً مباشراً، كلياً وطويل المدى أم مجهرياً وقصير المدى، فإنّ هذا البحث يعتمد استراتيجية عملية الفحص الداخلي والخارجي للوثائق أو البيانات والتي يحضر معظمها في مصادر هذا البحث في شكل "المعلومة" أو الوثيقة الالكترونية، والتوثق من مضامينها بواسطة أساليب المقابلة وسرديات الشهود "العدول" الذين يمكن الثقة بمستوى موضوعيتهم واستقلالهم النسبي عن الأطراف المنغمسة في عملية التغييرات.

تبرز هنا الأسئلة التالية: ما العلاقة بين نتائج سياسات النموذج التسلطي "المتبلرل" اقتصادياً وبين اندلاع "الحركات" و"الانتفاضات" الاحتجاجية في سورية، والأشكال المتعددة التي اتخذتها هذه الحركات في تطورها خلال أربعة شهور ونيّف، والتحوّل من أشكال الحركة العفوية إلى أشكال الحركة المنظمة نسبياً المستندة إلى زخم شعبي يتسم بديناميات دفعه الذاتي؟ وكيف تجسّدت آثار تلك السياسات في التاريخ اليومي للأحداث والاضطرابات والتظاهرات السورية؟ وإلى أيّ حدّ تحكّمت تلك النتائج في اندلاع هذه الحركات من المدن الطرفية المتوسطة والصغيرة، على طريقة تشبه اندلاع حركات الثورة التونسية أكثر ممّا تشبه اندلاع الثورة المصرية التي شكّلت الفئات الوسطى قوّتها الاجتماعية الأساسية الدافعة؟ ولماذا لم تندلع تلك الحركات في مدنٍ متوسطةٍ وصغيرةٍ أخرى في سورية تشبه مؤشّرات فقرها البشري والماديّ التنموية مؤشّرات المدن الأخرى التي اندلعت فيها الحركات؟ ومن هم الفاعلون الاجتماعيون الذين يدفعون الأحداث ويشكّلون زخمها ووقودها الدافع؟ ومن هم أولئك الذين يتظاهرون ويموتون ويتلقّون زخّات رصاص قوّات الأمن والميليشيا المساعدة لها المسمّاة بـ"اللجان الشعبية" أو "الشبيحة"؟ ولماذا ظلّت المدن المتروبولينية المليونية السورية، والمقصود هو مدينتا حلب ودمشق أساساً، حتى تاريخ كتابة هذا البحث خارج خارطة الانتشار الاجتماعي والمجالي لهذه الحركات؟ وما صلة ذلك بالموقف "السلبى" للفئات الوسطى المهنية الحديثة -بما فيها الفئات المتقنة- في المدن المليونية من الحركات الجارية؟ وما موقف البورجوازيّتين الحلبية والشامية بشكل خاص من هذه الحركات؟ وهل "قابلية الثورة" التي يميّز بها المجتمع السوري على غرار المجتمعين التونسي والمصري تقضي بالضرورة إلى "ثورات"، أو إلى مرحلة انتقال ديمقراطي، أم أنها قد تقضي إلى خراب الهيئة الاجتماعية، واحتمال سيادة فترةٍ طويلةٍ من التمزقات والاضطرابات الأهلية على غرار المشهدين العراقي والليبي في حال عدم قدرة اللاعبين الأساسيين على إنجاز "تسوية" تاريخية؟ وما هي مقيدات وفرص هذا التحول الديمقراطي في مجتمعٍ مركّب الهوية بالقياس إلى مجتمعين كالمجتمع التونسي والمصري يميّزان بتجانس الهوية النسبي أو بكون هوية كل منهما "بسيطة"، فيما هي "معقدة" في المجتمع السوري؟ وتجتمع هذه الأسئلة برمتها في السؤال الكبير الذي يضمها بإشكالية الانتقال الديمقراطي في المجتمع السوري المركّب الهوية. وسنبحث ذلك بشكلٍ مكثّفٍ وفق تحقيبٍ ممكنٍ لسيرورة الأحداث وفق ما يلي:

- ١- من الإرهاصات الأولى إلى خطاب الثلاثين من آذار/مارس ٢٠١١.
- ٢- من "جمعة الشهداء" إلى "الجمعة العظيمة" (١-٢٢ نيسان/أبريل ٢٠١١): الأطراف والمركز.
- ٣- "الجمعة الدامية": استراتيجية حصار المدن، العمليات العسكرية: الفتوحات الداخليّة وموجات النزوح والاقتلاع.
- ٤- خلاصة تحليل وتركيب: نحو "تسوية تاريخية".

المرحلة الأولى: من الإرهابات الأولى إلى خطاب الثلاثين من آذار/ مارس

اعتصام غير منجز

يشبه المؤرخ البريطاني البارز ستيفن همسلي لونغريغ، وهو يدرس تاريخ سورية ولبنان والعراق في المرحلة الانتدابية، طريقة تفاعل "أجزاء" منطقة الشرق الأدنى - أي الوطن العربي - بـ"الصهرج الرثان" الذي تتردد فيه أصداء ما يحدث في طنجة في بغداد ودمشق. وينطبق ما يصوره لونغريغ مجازياً بصورة مضاعفة في سياق ثورة الاتصالات على انعكاس آثار الثورتين التونسية والمصرية في الفضاء الاجتماعي-السياسي السوري العام، والذي يجد شروطه الموضوعية في القواسم المشتركة بين نتائج سياسات النموذج التسلسلي المتبلر اقتصادياً في الدول الثلاث.

في أواخر كانون الثاني/ يناير ٢٠١١، وبينما مجريات الثورة المصرية تتطور في "ميدان التحرير"، دعا عدة ناشطين سوريين تصدّهم الناشط الإسلامي الحلبي محمد غسان النجار إلى الاعتصام يومي ٤ و٥ شباط/ فبراير ٢٠١١ في ساحة سعد الله الجابري وأمام مبنى مجلس الشعب في سورية^(٢). واحتوت السلطة هذه الدعوة من خلال تفاهمها مع قوى المعارضة السورية الكردية والعربية في الداخل على عدم المشاركة في أي دعوة للاعتصامات مقابل العمل على إنجازها بواسطة الحوار. وهذا ما التزمت به تلك القوى، فقاطع مجلسا الأحزاب الكردية السورية^(٣) الاعتصام، بينما لم يبد من قوى التجمع أي محاولة منظمة لدعمه^(٤)، وفي يوم ٤ شباط/ فبراير ٢٠١١ تمخّضت دعوة الناشطين للاعتصام عن ساحاتٍ "خاوية"^(٥).

^٢ يندر غسان نجار من جماعة الإخوان المسلمين، وإبان حركة النقابات المهنية والعلمية في الثمانينيات اعتقل، وأمضى قرابة ١٢ عاماً في السجن، وشكّل "التيار الإسلامي الديمقراطي". وقد وجّه باسم التيار نداءً في ٣ شباط/ فبراير للشعب السوري للخروج في تظاهرات يومي ٤ و٥ شباط/ فبراير. وأهم ما جاء في نداءه: "أنا أدعوكم للتعبير عن رأيكم غداً الجمعة السبت. وليست الغاية إسقاط النظام، وإنما لنظهر للعالم أننا لسنا شعباً مدجنًا، ولا نزال شعباً متحضراً يأبى الذل، يعشق الحرية. نريد تغيير سلوك النظام للسماح بحرية التعبير والرغبة في المشاركة والتعددية السياسية، فهي ليست حكرًا على حزب البعث. ونريد استقلال ونزاهة القضاء، والإفراج عن السجناء السياسيين وعلى رأسهم شيخ القانونيين الرجل الثماني المقدم هيثم المالح، والإفراج عن الطاهرة الأبية الصبية طلال ملوح". ودعا أيضاً الشباب السوري بمن في ذلك شباب حزب البعث إلى إسقاط رموز الفساد، مخاطباً الرئيس السوري بشار الأسد بالقول "نحن لسنا ضد شخصك، ولكن ضد أسلوب الحكم الفردي والفساد والاستبداد وتكديس الثروة بيد أقرانك وحاشيتك". وإثر هذا البيان تمّ اعتقال غسان في ٤ شباط/ فبراير ٢٠١١ ووجهت له تهمة إضعاف الشعور القومي وتعكير صفو الأمة.

http://www.levantnews.com/index.php?option=com_content&view=article&id=5788:2011-02-12-23-08-08&catid=77:civil-society-human-rights&Itemid=78

^٣ تتألف منظومة الأحزاب الكردية السورية من أحزاب كثيرة معظمها مؤتلف في ائتلافين هما "المجلس العام للتحالف الكردي"، ويضم حزبين هما الحزب الديمقراطي التقدمي الكردي (عبد الحميد الدرويش)، وحزب الوحدة الديمقراطي الكردي (محي الدين شيخ آلي) إضافةً إلى شخصياتٍ مستقلة، ويعتبر في معيار الراديكالية الكردية معتدلاً؛ بينما الائتلاف الثاني هو المجلس السياسي الكردي المجلس السياسي الكردي في سورية. ويضم هذا المجلس تسعة أحزاب، والرئيسة منها هي أربعة: الحزب الديمقراطي الكردي في سورية (البارتي) بقيادة الدكتور عبد الحكيم بشار، وحزب (أزادي) الكردي في سورية بقيادة خير الدين مراد، وحزب "يكتي" الكردي في سورية بقيادة إسماعيل حمي (السكرتير الحالي)، وحزب اليسار الكردي بقيادة محمد موسى. كما هناك خمسة أحزاب ثانوية في هذا المجلس هي: حزب المساواة الكردي وحزب البارتي الكردي والحزب الوطني الكردي وتيار المستقبل الكردي، ويوصف هذا الحزب في العرف الكردي العام بأنه أكثر راديكاليةً في ممارسة السياسة. وهناك أيضاً حزب الاتحاد الديمقراطي

قامت السلطات إثر ذلك بخطوة تكشف عن الثقة بالنفس، وحاولت أن تردّ على "أسطورة" دور "الفيستوك" في إشعال الثورتين التونسية والمصرية وإلهابهما برفع الحظر عنه، وعن كافة مواقع التواصل الاجتماعي الأخرى^(١)، وخلال ذلك كانت قد أنشئت منذ أوائل شباط/فبراير ٢٠١١ على "الفيستوك" صفحة "الثورة السورية ضد بشار الأسد"، واستقطبت الصفحة في حدود منتصف شباط/فبراير نحو (٣٢ ألف) مستخدم، وفتحت صفحة "كلنا سورية" في الفترة نفسها، وأصبحت تضم ١٥ ألف مستخدم^(٧) ولم يأت يوم ١٥ آذار/مارس الذي حدّده الناشطون لإطلاق "يوم الغضب السوري" حتى كان عدد من جذبتهم الصفحة قد وصل إلى نحو ٤٠ ألف مشترك^(٨).

وتعبّر عملية رفع الحظر عن الفيسبوك عن دواعٍ أمنية للتعرف إلى الناشطين، بينما تعبّر سياسياً على وجه الدقة عن الفرضية التي تبناها الرئيس السوري بشار الأسد في أواخر كانون الثاني/يناير ٢٠١١ في أنّ الشرق الأوسط يشهد عملية تغيير لا يمكن التكهّن بنتائجها، بسبب حدوث وقائع جديدة في كل أسبوع، وأن الصعوبات التي تواجهها سورية هي أكبر ممّا واجهته تونس ومصر؛ لكن مع ذلك فهي مستقرة، بسبب توافرها مع معتقدات الشعب في السياسة الخارجية. وفسر الرئيس الإحباط بعوامل خارجية وداخلية، لكنه علّق القيام بعملية إصلاح جديدة تتخطى حدود العمليات "التجميلية"، أو حدود ردة الفعل على ما حدث في تونس ويحدث في مصر، على تفاعل جملة عوامل تؤدي إلى تطور المجتمع. وأشار إلى أنّ عملية إقرار

(pyd) وهو الواجهة السورية لحزب العمال الكردستاني (B.K.K)، الذي ليس عضواً في أي من المجلسين لأسباب متعددة من أبرزها في الظاهر وجود مادة في نظام الحزب تنص على قسم الولاء لزعيم الحزب الذي ليس سورياً بل هو تركي، وبالتالي يتم التعامل معه كحزب تقوده قيادة تركية غير سورية. حول هذين المجلسين راجع الرابطين:

www.welateme.info/erebi/modules.php?name=News&file=article&sid=7823&mode=thread&order=0&thold=0

www.welateme.info/erebi/modules.php?name=News&file=article&sid=7814

٤ إثر هذه الدعوة، عقدت الأمانة العامة للمجلس السياسي الكردي في سورية اجتماعها الدوري، في ٢٠/١/٢٠١١، وأكدت فيه "على ثورة الشعب التونسي وانتفاضة شعب مصر سوف تؤثر تأثيراً كبيراً على الأنظمة الشمولية العربية". ودعت الأمانة العامة للنظام السياسي في سورية إلى أن يأخذ تطورات الساحة العربية والغليان الشعبي بعين الاعتبار فيبادر إلى مراجعة النفس والبدء بإصلاحات وإطلاق الحريات العامة والمعتقلين السياسيين ومعتقلي الرأي والضمير، ويضع حداً للفساد ويعالج أزمة البطالة والوضع الاقتصادي المتأزم لتحسين الأحوال المعيشية للشعب (القسم العربي في wallet me: "بلاغ صادر عن اجتماع الأمانة العامة للمجلس السياسي في سورية"، ٢٠١١/٢/١).

<http://www.welateme.info/erebi/modules.php?name=News&file=article&sid=7814>

كما عقد المجلس العام للتحالف الديمقراطي الكردي في سورية اجتماعاً استثنائياً في ٢ شباط/فبراير ٢٠١١، أكد فيه على ضرورة القيام بإصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية بغية تحسين البلاد، والحفاظ على السلم الأهلية، والوحدة الوطنية، والاستقرار، وتجنب حدوث هزات اجتماعية فيه. وطالب رئيس الجمهورية باتخاذ خطوات عملية لإزالة حالة الاحتقان الموجود في الشارع السوري، من خلال جملة من الإجراءات التي تقود إلى بناء الدولة الديمقراطية. كذلك ناشد المجلس العام المواطنين الكرد إلى ضبط النفس والتخلي بروح اليقظة والحذر، وعدم الانسياق وراء الإعلام غير المسؤول (القسم العربي في wallet me: المجلس العام للتحالف الوطني الديمقراطي الكردي يدعو المواطنين الكرد إلى ضبط النفس وعدم الانسياق إلى وراء الإعلام غير المسؤول، ٢٠١١/٢/٣).

<http://www.welateme.info/erebi/modules.php?name=News&file=article&sid=7823&mode=thread&order=0&thold=0>

٥ زياد حيدر، "سورية: لم يأت أحد لـ"جمعة الغضب"، ٢٠١١/٢/٧.

<http://www.assafir.com/Article.aspx?EditionId=1764&ChannelId=41406&ArticleId=589>

لم تجد الدعوة إلى يوم الغضب أي استجابة أو أي تغطية إعلامية بسبب الزخم الإعلامي الذي كانت تحظى به الثورة المصرية ولاسيما في مثل هذا التاريخ الذي كانت فيه الثورة المصرية تمر بمنعطف خطير يتعلّق بقبول الأحزاب التقليدية في مصر ومنها حركة الإخوان المسلمين للحوار مع النائب الذي عينه الرئيس المصري السابق حسني مبارك له وهو اللواء عمر سليمان. وبالتالي لم يكن واضحاً مدى نجاح الثورة المصرية من عدمه.

٦ ألغت الحكومة السورية في ٨ شباط/فبراير ٢٠١١ الحجب عن أربعة مواقع الكترونية كانت محظورة في سورية وهي "اليوتيوب" و"الفيسبوك" و"بلوجر" و"مكتوب بلوج"، وأرادت الحكومة السورية من خلال ذلك أن تدلل على الثقة بينها وبين المواطنين بعد عدم التجاوب مع دعوة ٥ شباط/فبراير (ديبرس: "بعد الفيسبوك واليوتيوب بلوج أيضاً خارج المواقع المحجوبة في سورية"، ٢٠١١/٢/٨).

<http://www.dp-news.com/pages/detail.aspx?articleid=73508>

٧ المسدي، مصدر سبق ذكره.

٨ أخبار العالم: "مظاهرة بسوق الحميدية بدمشق"، ٢٠١١/٣/١٦، http://www.akhbaralalam.net/news_detail.php?id=44628.

قانون العمل في سورية اقتضت خمس سنوات، وأن هناك قانونين على وشك الصدور قبل نهاية العام ٢٠١١ هما قانون المجتمع المدني (الجمعيات) وقانون الإدارة المحلية، وأنه "كي يكون واقعياً" فإن علينا أن ننتظر حتى الجيل القادم لنحقق هذا الإصلاح^(٩). لكن الرئيس ما كاد يطلق هذه الرؤية حتى سقط مبارك في ١٢ شباط/فبراير ثم اندلعت الأحداث في ١٧ شباط/فبراير ٢٠١١ في بنغازي بليبيا، وباتت أصداء "الصهرج الرنّان" تدقّ أبواب سورية، وشكّلت حادثة "الحريّة" أول مقطعٍ معبرٍ عنها، أخذ شكلاً محدّداً هو شكل "الجمهرة" العفوية.

عود الثقب وعمود الدخان الكثيف: الحريّة أو "الجمهرة المقهورة"

أخذت "حادثة الحريّة" التي وقعت في ١٧ شباط/فبراير ٢٠١١ في حيّ الحريّة التجاري التقليدي التاريخي بدمشق إثر هبة المارّة لنصرة شاب تعرّض لإهانات شرطي مرور وصفعته على وجه الضبط شكل "الجمهرة" أو "التجمهر" الشعبي العفوي الصافي، وسط هتافاتٍ هادئةٍ: "حاميا حراميا، الشعب السوري ما بينذل" "لا إله إلا الله"^(١٠). ثم تحوّلت الهتافات بعد قيام وزير الداخلية بحلّ المشكلة لصالح الشاب الذي أدلّ وأهين إلى هتاف "بالروح بالدم نفديك يا بشّار"^(١١). وكان هذا الشكل من الهتافات يعكس إحباط "الجمهرة" المحتقنة من العلاقة التسلطية بين الدولة والمجتمع بقدر ما يعبر عن رهان "الجمهرة" على تبني الرئيس لإصلاحاتٍ تحدّ من الفساد والتسلّط وتحترم كرامة المواطنين. وهي من نوع الاعتقاد السائد بأن الرئيس "طيب" بينما الفاسد والمتسلّط هم من يحيطون به أو "حاشيته"، وهو اعتقاد شائع في النظم التسلطية، وكان من أبرز أنماطه العالمية حالة قيصر روسيا الذي كان ينظر الفلاحون الروس إليه عشية ثورة أكتوبر ١٩١٧ كعاهلٍ "طيب" لا يدري ما تقوم به حاشيته.

^٩ زياد حيدر: "الأسد في مقابلة مع "وولستريت جورنال": "التغيير يفتح العقول لا بالمراسيم.. سبب استقرار سورية التناغم بين السياسات ومعتقدات الشعب لا مصالحه فحسب"، ٢٠١١/٢/١.

<http://www.assafir.com/Article.aspx?EditionId=1760&ChannelId=41306&ArticleId=113&Author=%D8%B2%D9%8A%D8%A7%D8%AF%20%D8%AD%D9%8A%D8%AF%D8%B1>

^{١٠} تتلخص مجريات هذه الجمهرة بوقوع مشادة بين أحد تجار الحي وبين شرطي مرور سرعان ما تطور إلى تجمع احتجاجي طوّره تجار السوق وشباب الحي إلى مواجهة مع اصطفاة الشرطة ضدّهم. وضم التجمهر على طريقة التدرج السريع للكرة بضع مئات من المتجمهرين حتى غدا المشهد ألقياً، وهم يهتفون بشعارات "الشعب السوري ما بينذل" و"حاميا حراميا" ولم يتم فضّ الاحتجاج إلا بعد وصول وزير الداخلية، وتوليه بنفسه احتواء الأزمة وسط إطلاق المتظاهرين لشعار جديد هو "بالروح بالدم نفديك يا بشّار". قارن مع المشهد المصوّر: فرانس ٢٤: مظاهرة احتجاجية في دمشق بعد اعتداء الشرطة على شاب، ٢٠١١/٢/١٨.

<http://www.france24.com/ar/20110218-syria-demonstrations-bashar-alassad-police>

لمشاهدة المشهد مصوّراً اتبع الرابط:

<http://www.youtube.com/watch?v=NykGjfKn3TU>

^{١١} كان هذا الشعار يعكس الاعتقاد العام السائد بأن الرئيس "طيب" لكن حاشيته وموظفيه "ظالمون". وهو اعتقاد منتشر في النظم غير الديمقراطية، وأقدمها يتمثل في تمييز الفلاحين الروس بين "القيصر" "الطيب" وعدم علمه بممارسات موظفيه "الأشرار". وكان في الحالة السورية مبنياً في ذلك الحين على الرصيد الشعبي القوي للرئيس بشّار الأسد من ناحية صورته "الإصلاحية" والقريبة من الناس، ويستدعي العامة في هذا الاعتقاد من الرئيس التدخل بصورة فعّالة للحدّ من المظالم ومعاقبة المتسببين فيها.

حلّ وزير الداخلية السوري المشكل بطريقة الاحتواء التي أخذت شكل "القوة اللينة"، واستطاع أن يطوّقها بالفعل، وزجّ رجال الشرطة الثلاثة في السجن وأحالهم إلى التأديب^(١٢). لكن هذا الاحتواء كان مؤقتاً، لأن طبيعة حدث الإذلال والإهانة لا ترتبط بمجرد خصائص فردية بل بطبيعة النظام التسلسلي الذي يبني علاقاته مع المواطنين على أساس كونهم "رعايا" وجود عليهم بعطفه وليسوا "مواطنين" يضمن القانون حقوقهم، وعلى أساس العنف وليس القانون. لقد كان استصراخ الشاب الدمشقي المُذلل المُهانّ للمارة لنجدته من شرطي المرور "الشرس" الذي انهال عليه بالضرب والإهانات بدلاً من أن يؤدي له التحية ويفهمه مخالفته حسب ما تقول به أنظمتها؛ يشبه في بعض الجوانب استصراخ الشاب محمد بوعزيزي للمارة وهو يتلقّى صفة الشرطة التونسية وإذلالها وإهاناتها له، ثم يحرق نفسه، فتتدلج من اشتعاله ألسنة اللهب في بيدرٍ اقتصادي- اجتماعي- سياسي محتقنٍ ومهمّشٍ قابلٍ للاشتعال. لقد كان عبارةً عن صاعق القنبلة المحقنة.

وربما يتمثل الفارق في أنّ أهالي سيدي بوزيد كانوا يعرفون في إطار علاقاتهم الأهلية الشاب "البطل" وصاحب عربة الخضار محمد بوعزيزي، ويعرفون معاناة عائلته مع المصارف التونسية التي نزعت استثمار الأرض عن أقربائه من الفلاحين الصغار والمتوسّطين لصالح رجال الأعمال المتنفّذين، ويحسّون جميعاً بالتمييز والتهميش التنموي الجهوي، بينما لم يكن سوى القليل من "متجمهري" الحريقة يعرفون شيئاً عن الشاب عماد نسب الذي تلقّى صفعات شرطي المرور وإهاناته. ولهذا تضامنوا مع الشاب المُذلل المُهانّ كونهم مُذللين مُهانين جميعاً. وبلغت العلوم الاجتماعية، كانت دينامية مشهد "الحريقة" هي ديناميات الجماعة المُذلة المهانة والمقهورة التي شرحها الروائي تيودور دوستوفسكي، وكأن الحياة تقلّد هذه المرة الفن. لقد كانوا جميعاً مهينين لأن يصطفّوا عفويّاً في مشهد مغفل الاسم والفاعل-الفرد (Anonyme) مع الشاب المُذلل المُهانّ. كسرت "جمهرة" المُذللين المهانين والمدمّرين حاجز الخوف في سورية، كما كسرت جمهرة الفلاحات التونسيات "قوبيا" الشرطة التونسية التي واجهت لأول مرة فلاحات أمياتٍ مذلاتٍ مهاناتٍ ومحارباتٍ في مصدر عيشهنّ وهو الأرض، وقد تجرّأت على جرّ الشرطي التونسي من رقبتة وطرحه على الأرض.

وكما حدث في تونس حدث الأمر نفسه في دمشق، فلم يكن ممكناً لهذه "الجمهرة" في "الحريقة" أن تنشأ لولا توقّر بيئةٍ قابلةٍ مسبقاً لاستقبالها والانفعال معها، فلقد كان المجتمع السوري قد بلغ في السنوات الأخيرة أعلى درجات الاحتقان والغضب على السياسات التسلسلية، الملبرلة اقتصادياً خصوصاً، وعلى العلاقة التسلسلية ما بين الدولة والمجتمع عموماً. لقد عبّر مشهد الحريقة المفاجئ والعفوي الخالص في شكله، عن رأس الجليد أو بدايات انبعاث "البركان" التي تعكس ما يعتمل فيه.

^{١٢} جريدة الوطن (السورية)، اتبع الرابط:

اعتصامات النخبة أو الناشطين: السفارة والداخلية.. ديناميّة الاعتصام

تمثلت هذه الديناميّة من ناحية شكلها في اعتصام بضع مئاتٍ من الشباب في ٢٢ شباط/فبراير أمام السفارة الليبية بدمشق، وهم يرفعون هذه المرة شعار "خاين اللي بيقتل شعبه"^(١٣)، ثم اعتصام ناشطي الحريات وحقوق الإنسان وأهالي المعتقلين "الصاخب" في ١٦ آذار/مارس أمام وزارة الداخلية الذي كان في الواقع اقتحاماً لها (اعتصام الداخلية). ونجح الاعتصامان الشبابيان "النخبويّان" من قبل أفراد مدربين سياسياً ورمزياً، وسجلاً نقطةً لصالح ديناميكية الشباب المنخرط في حركة الحريات والدفاع عن حقوق الإنسان بأساليب عصرية. وعلى الرغم من أن اعتصام الداخلية لم يجذب إليه أكثر من مئة معتصمٍ كقديراً أعلى من بين الأربعين ألف الذين أعلنوا عزمهم من خلال صفحات الفيسبوك على المشاركة فيه^(١٤)، فقد كان أثره السياسي الرمزي مدوّياً، ليس بسبب تغطيته "الساخنة" من قبل الفضائيات في مناخ تساقط "آثار الثورات" فحسب، بل لوقوعه في بيئة حسّاسةٍ محتقنةٍ بالاحتجاج أيضاً. لقد كانت "كرة الثلج تتدحرج".

إثر حادثتي الحريقة والسفارة الليبية انهمك بعض أعضاء القيادة السورية ومستشاري الرئيس والحكومة والمحافظون في إجراء اتصالات مع من يمكن وصفهم بأصحاب الرأي "المستقلين" والقريبين من السلطة والقيادات الاجتماعية في المحافظات. وتمخّض ذلك عن تنازّلٍ محدودٍ قدّمته السلطة، وتمثّل في صدور مرسوم في ٧ آذار/مارس ٢٠١١ بالعفو عن مرتكبي الجرائم الصغرى قبل تاريخ صدور المرسوم. ولم يشمل العفو معتقلي الرأي وحرية التعبير، ولكنه نصّ في الوقت نفسه على الإفراج عن كلّ من تجاوزت سنّه السبعين عاماً بشكل عام^(١٥). وشمل الإفراج في اليوم الموالي لصدور المرسوم الناشط والحقوقى البارز "هيثم المالح" البالغ من العمر ٨٢ عاماً. لقد أثار هذا المرسوم جدلاً واسعاً في سورية فيما يخص قضية المعتقلين السياسيين، فبعد أن نشرت وكالة الأنباء السورية "سانا" مرسوم الإغفاء تحت عنوان "الرئيس الأسد يصدر مرسوماً تشريعياً يقضي بمنح عفو عن الجرائم السياسية المرتكبة قبل تاريخ ٨/٣/٢٠١١"،

^{١٣} تصدرت عملية الاعتصام مجموعة من الشباب مستعدة للعمل. وكان في عدادها شبيبة حزب الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي العربي المعارض الذين تمكنوا من انتزاع قرار من قيادتهم بعدم معارضة مشاركتهم في الاعتصام بوصفه حركة شباب. ونشرت صحيفة الوطن السورية في اليوم التالي خبراً صغيراً عن الاعتصام في صفحاتها الداخلية.

^{١٤} يجب ألا نستغرب ذلك في ضوء التجارب المقارنة، ففي اليمن كان دور الفيسبوك ولا يزال محدوداً جداً في التعبئة، أما في المثال المعبر في تونس فمن أصل عشرات الآلاف الذين تداعوا للاعتصام أمام وزارة الاتصالات التونسية للاحتجاج على إجراءاتها لم يشارك أكثر من عشرات حوارات الباحث المباشرة مع القادة الشباب للثورة التونسية، ومجمل مداخلات (مؤتمر الثورات والإصلاح والتحول الديمقراطي في الوطن العربي من خلال الثورة التونسية، ١٩-٢٢ نيسان/أبريل ٢٠١١، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة).

^{١٥} بي بي سي: "سورية الإفراج عن المعتقل السياسي هيثم المالح في إطار العفو العام"، ٨/٣/٢٠١١،

تراجعت وقامت بحذفه نهائياً^(١٦)، وهو ما يحتمل حدوث تباينٍ في القيادة السورية حول حدود العفو والفئات التي يشملها.

بين ديناميتين أو شكلين متكوّنين: "الجمهرة" و"الاعتصام"

أخذ رأس الجليد أو الانبعاثات الأولى من فوهة البركان خلال أسبوع تقريباً شكلين أوليين هما شكل "الجمهرة" التي تمثل شكل التجمع العفوي للجماعة "الشعبية" المقهورة المُذلة المهانة، وشكل "الاعتصام" في نمط التجمع الشبابي المنظم. والشكل الأول شعبي عفوي أما الشكل الثاني فشاببي نخبوي منظم. ولكن تفحص ما هو متاح من الطبيعة الاجتماعية المرصودة لهذين الشكلين كما جريا بالفعل يستدعي التمييز بين الفئات الوسطى الحديثة التي أنتجها نظام التعليم الحديث من جهة، وبين الفئات الوسطى التقليدية المؤلفة من الملاك العقاريين الصغار وأصحاب الحرف والدكاكين وغيرهم، من جهة ثانية^(١٧)، وبين هذين النوعين من الفئات الوسطى وبين الفئات الوسطى الجديدة المتعلمة التي ضحّتها نظام الربط بين التعليم وبين السوق، وارتبطت عملية إعادة تشكيلها بإعادة تشكيل طبقة رجال الأعمال السوريين في مجموعة "المئة الكبار" أو "الذئاب الشابة" وتساعد أهميتها بارتفاع وتيرة نمو قطاع الخدمات الإنتاجية الجديدة القائمة على تدفق الاستثمارات عبر بوابة النخبة القويّة في شريحة "المئة الكبار" في المصارف وشركات التأمين والاتصالات والتسويق والمحاسبة والخدمات الكومبيوترية المختلفة والدعاية والإعلان والإدارة الفندقية، وتسويق المربيات الآسيويات المنزليات.. إلخ، والتي شكّلت تغييراً كبيراً في المستوى الثقافي والقيمي للبنية الاجتماعية، من جهةٍ ثالثة.

ويسجّل في هاتين الديناميتين، في حدود ما هو مرصود، أنّ الفئات الوسطى التقليدية في حيّ الحريقة قد انخرطت في مشهدها أو في "جمهرة الحريقة"، إذ هي الأكثر قابليةً بالفعل للتحرك في تاريخ التظاهرات السورية كلها كنوعٍ من تضامن "أبناء البلد"، وبالأحرى "أهل البلد"؛ بينما كان معظم المعتصمين أمام السفارة الليبية من الشباب الجامعيين الذين ينتمون إلى فئة الشباب بمعناها المتعارف عليه في التعاريف الدولية،

^{١٦} جرى تناقل الخبر على الانترنت وعلى صفحات التواصل الاجتماعي. وأعيد نشر المرسوم بعد ٣ ساعات من دون أن يتضمن العفو عن معتقلي الرأي. قارن مع الموقع الرسمي لحزب الحداثة والديمقراطية لسورية: سانا تنشر خبراً عن مرسوم رئاسي يقضي بالإفراج عن المعتقلين السياسيين ويسحب بعد ٣ ساعات،

<http://www.hadatha4syria.de/2010-07-08-20-03-56/1813--3-.html>

أوردت وكالة سانا تصريحاً للسيد وزير الداخلية أكد فيه مباشرة تنفيذ أحكام هذا المرسوم فوراً وتسليم المعتقلين لأهاليهم من سجنى صيدنايا وعدرا بتاريخ ٢٠١١/٣/١٢. أما وكالة سانا، فقد نفت هذا الخبر. المصدر السابق نفسه.

^{١٧} خلدون حسن النقيب، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية (من منظور مختلف)، ط٢، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩)، ص ١٧٥. وللتوسع قارن أيضاً مع: خلدون النقيب، الدولة السلطانية في المشرق العربي المعاصر، ص ٢٦٩-٢٧١.

وهي الفئة العمرية بين ١٥ و ٢٤ سنة، وهي الفترة العمرية الأكثر حساسيةً في تكوين استجابات الشباب للقضايا، وتشكيل سلوكياتهم. وكل سلوكيات كما نعرف هي قضايا واتجاهات. وكان الجزء المسيس المرصود منهم يواجه مشكلاتٍ جديةً بين اندفاع الشباب ورفضه لما هو تقليدي ومحاظ، وبين تقليدية الحزب أو المنظمة التي ينتمي إليها. وكانت هذه هي حال شبان منظمة الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي العربي الذين انخرطوا في الدعوة إلى التجمع، وساهموا فيه، بإذن حزبي "منخفض"، في ذكرى قيام الجمهورية العربية المتحدة بتبيين الفروق بين القومية الديمقراطية التي يتبناها الحزب وبين النظم التسلطية التي ترفع شارة القومية العربية^(١٨).

حركة شعارات الجدران ومحنة أطفال درعا: مُدَلّون مُهانون

يمكن القول على المستوى التسجيلي البحت لمجريات السيرورة، إنّ الناشطين دعوا الشعب السوري وشبابه بشكل خاصّ عبر صفحات الفيسبوك والبريد الإلكتروني والاتصال المباشر إلى التظاهر في ١٥ آذار/مارس للمطالبة بالحقوق والحريات الديمقراطية. وكان اختيار شهر آذار/مارس للتظاهر يراعي بشكل خاص محاولة جذب الناشطين الأكراد المتبرّمين من تسويات قيادات الأحزاب والعشائر الكردية مع السلطة بعدم مشاركتهم في حركات التظاهر والاعتصام، إلى الحركة باعتبار أنّ شهر آذار/مارس يشهد سنوياً بين ١٢ و ٢١ منه إحياء ثلاث ذكرياتٍ في المجتمع الكردي السوري، هي ذكرى حلبجة في شمالي العراق و ذكرى أحداث القامشلي في سورية وعيد النيروز التقليدي القومي.

اتّخذت الأحزاب الكردية بمجلسيها اللذين يضمّان أحزابها الأحد عشر فعلياً موقفاً سلبياً من هذه الدعوة لأسبابٍ متعددة، هي اجتناب إضافة عنصر أقليمي في الاحتقان السوري يسمح بتصوير المشكلة على أنها مشكلة كردية-عربية من جهة، وبسبب ترقّب القوى السياسية الكردية تلبية النظام لعوده في تحقيق المطالب الكردية الملحة بأسلوب التفاهم وليس الضغط^(١٩)؛ بينما حاول الناشطون أن يترجموا الدعوة إلى عمل، بتثوير الفئات الشعبية في أماكن التجمع الشعبية مثل الأسواق. وتمثّل ذلك في ١٥ آذار/مارس ٢٠١١ بخروج أول تظاهرة واضحة في سورية، تنادي بالحرية^(٢٠). وكان المهم فيها ليس العدد المتواضع للمتظاهرين والذي لم يتجاوز العشرات، بل شعاراتها. وهذا هو، على كلّ حال، منطق تراكم "كرة الثلج" أو

^{١٨} مقابلات شخصية أجراها الباحث في أيام ٢٣-٢٤-٢٥ شباط/فبراير و ١٢ نيسان/أبريل ٢٠١١ مع عدة شباب مشاركين ومنظمين سياسيين للاعتصام.

^{١٩} بينت الإجابات عن أسئلة الباحث التي وجهها بطريقة الاتصال المباشر لعدد من أصحاب الرأي والمتابعين والممارسين السياسيين الأكراد أن القوى السياسية الكردية قد قامت بجهود كبير لضبط ردة الفعل الكردية في إحياء هذه الذكريات الثلاث، وحرصت على تحجيمها ضمن حدود معينة شبه رمزية. وكانت خلاصة الأجوبة أنه لن يحدث أي شيء مثير، بل إن ما سيحدث هو أقل مما كان يحدث سابقاً.

^{٢٠} ردّد فيها المتظاهرون شعارات تدعو إلى التغيير والإصلاح وإطلاق الحريات، وحقوا "وينك يا سوري وينك"، و"الله سورية حرة وبس"، و"سلمية سلمية". (أخبار العالم: مظاهرة بسوق الحمديّة بدمشق، ٢٠١١/٣/١٦،

"النار" الذي يخلق دينامية ذاتيةً دافعةً تتخطى مسألة العدد المتواضع لتشير إلى جوهر عملية التغيير الاجتماعي الجديدة. فالحريق يمكن أن يبدأ في ظروفٍ مواتيةٍ من عود ثقابٍ. وقد بدأت هذه التظاهرة بتجمع ضمّ خمسة أشخاص أمام الجامع الأموي، ساروا في سوق الحميدية، وغدوا حين اقترابهم من منطقة الحريقة عشرات من المتظاهرين إلى أن فرّقهم رجال الأمن بعد اعتقال ستة منهم^(٢١).

أما الدعوة التي وجّهت في اليوم نفسه على صفحة "الثورة السورية ضدّ بشار الأسد" في "الفيسبوك" لتنظيم تظاهرةٍ أخرى بعد صلاة العصر، فلم تلق استجابة^(٢٢). ولكن الأثر النفسي كان كبيراً، فلقد أنشأ "الحوض الاتصالي اللامركزي الفيسبوكي" مناخاً نفسياً للثورة، كشف عن عطالة ديناميات الهيمنة الأيديولوجية للنظام السياسي-الأيديولوجي القائم.

لقد انطلق "يوم الغضب" إذاً بشكلٍ بسيطٍ من خلال تظاهرةٍ صغيرةٍ وسط سوقٍ مزدحمٍ وبعاصمٍ صغيرٍ منظمٍ أمام وزارة الداخلية، وهي ظواهر كان بإمكان الأجهزة الأمنية السورية أن تتعامل معها بيسرٍ؛ لكنه لم ينطلق بشكلٍ حقيقيٍ إلا من درعا، وكان تسريع انطلاقه بشكلٍ دراماتيكيٍ يرجع للمفارقة إلى السلوك المتعجرف وغير العقلاني لأجهزة الأمن المحلية في درعا، وليس لدعوات "الفيسبوك". لقد كانت هذه هي قصة "أطفال درعا".

كان الناشطون قد قاموا في ١٢ آذار/مارس ٢٠١١ ببسط شعاراتٍ تحريضيةٍ مكتوبةٍ ومكرّرةٍ على جدران المدارس، والشوارع العامة، وبعض البنايات في أكثر من محافظة سورية، مثل "جاك الدور يا دكتور"، "الله، سورية، حرية ويس" رداً على شعار "الله، سورية، بشار ويس". وهو ما يشير إلى طابعها المنظم الذي يتخطى حدود المحاكاة العفوية^(٢٣). أوقف جهاز الأمن السياسي نحو (٧٠) مشبوهاً، ثم استبقى لديه (١٥) موقوفاً كان معظمهم ينتمي إلى فئة الأطفال (ما دون ١٥ سنة)، بل وينتمون إلى فئة ما دون ١٢ سنةً. توسّلت أمّهات الأطفال للإفراج عنهم، ولكنهن سمعن كلاماً من رئيس فرع الأمن السياسي لا يليق إسماعه لأي امرأةٍ في العالم، وتدخل شيوخ درعا لديه على الطريقة العشائرية أو طريقة "الدخيل" بوضع كل منهم "عقاله" و"حطّته" على طاولته التي تعني قواعدها -بالضرورة حسب العرف- مراعاة مطالب "الدخيل" والاستجابة لها بكلمة "أبشر". ولكنه دقّ الجرس، وأمر الحاجب برمي العقالات في سلّة المهملات، وحينئذ سمع المسؤول الأمنيّ الجواب: "خسنت"^(٢٤). كان وضع شيوخ درعا في هذه اللحظات هو وضعي المدّئين المهانين والمقهورين. ومن خلال الرّد الطبيعي للمدّلل المهان على إذلاله خرج "حريق" درعا. وبفهم علم

^{٢١} بي بي سي: "سورية مظاهرة أمام وزارة الداخلية في دمشق"، ٢٠١١/٣/١٦.

http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2011/03/110316_syria_prisoners_families.shtml

^{٢٢} المصدر نفسه.

^{٢٣} اطّلع الباحث بهدف التأكد المباشر على بعض هذه الشعارات في بعض الجدران في حيّ المعصمية بدمشق.

^{٢٤} وفق رواية متواترة قام شيوخ درعا بوضع العقالات والحطايط على طاولة العميد، وتعني أنهم سيدينون له كثيراً مقابل تلبية طلباتهم التي تعتبر تلقائية بالعرف العشائري في مثل هذه الحالة. لكن العميد دقّ الجرس وطلب من الحاجب رميها في سلّة المهملات (مقابلة توثيقية مع عبد الحميد توفيق رئيس مكتب الجزيرة بدمشق، سجّلتها معه الباحثة في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات أميمة عبد اللطيف بتاريخ ٢٠١١/٤/٤).

التاريخ لدور الصدفة والعشوائية والمفاجأة في تشكيل سيرورة الأحداث، انقطعت هنا سلسلة سببية وبرز فيها عنصر مفاجئ أطلق ديناميّةً جديدةً ذات سلسلة سببيةٍ أخرى ترتبط فور تطورها الجديد بعنصر الإرادة الإنسانية، لكنها تصل أيضاً في لحظةٍ ما إلى نقطة حرجها، وتبدأ سلسلة جديدة. فالتاريخ ليس سلسلة أسبابٍ فحسب، بل وسلسلة مفاجآت تخرق السببيات أيضاً.

من جمعة "الفرعة" إلى اقتحام الجامع العمري: قومة درعا

جمعة "الفرعة"

حوّل وجهاء درعا المُدّلون المهانون يوم الجمعة ١٨ آذار/مارس إلى ما سُمّي في البلدة بـ"جمعة الفرعة". كان اسم "الفرعة" هو الشكل المحلي لدينامية التضامن العشائري والمناطقّي، إذ "تظهر التضامانات المحليّة في أوقات الأزمة الاجتماعية بالدرجة الأولى"^(٢٥). إنها بهذا المعنى ديناميّة دفاعيّة جماعيّة. وسيسجّل بروز هذا الشكل فاتحة معاودة ظهوره في العديد من المدن السورية المتوسطة والصغيرة والمتناهية في الصغر، التي تعرّض أهلها للقتل والمهانة طيلة الأحداث. تتسم ديناميّة "الفرعة" -بطبيعتها- بكونها ديناميّة تعبوية. وقد توجّه المتظاهرون في ضوء هذه الديناميّة، وفي مقدّمهم أهالي الأطفال الموقوفين، إلى الجامع العمري، وهم يستصرخون "وينكم يا أهل الفرعة"، ويهتفون: "الله سورية حرة وبس"، و "ما فيه خوف بعد اليوم"، ولم يسلم من هتافاتهم رئيس فرع الأمن السياسي العميد عاطف نجيب والمحافظ فيصل كلثوم ورجل الأعمال السوري؛ أو كبير "المئة الكبار" بين رجال الأعمال؛ رامي مخلوف. وتوجّهوا نحو فرع الأمن السياسي لحرقه، وتحولت فورة المُدّلين المهانين، على غرار ما يحدث في الحركات العفويّة الغاضبة في العالم كافّة، إلى عملية انتفاضة واضطراباتٍ، يتضامن فيها "المُدّلون المهانون" في صفٍّ واحدٍ ضدّ من أهانهم، ويتحد فيه المظلومون في مواجهة الظالم^(٢٦). وفي الدول الديمقراطية، لا يمكن للأمر أن يصل أبداً إلى هذا الحدّ بحكم سيادة دولة الحقّ والقانون وخضوع كافة أطراف الهيئة الاجتماعية للقانون، بينما تقرض النظم التسلطيّة -وما يجمع بينها هو أنها نظم أمنية بامتياز- على رعاياها اللجوء إلى محاولة أخذ حقوقهم باليد، في ظلّ غياب أي مؤسساتٍ تضمن هذه الحقوق، كما في ظلّ استهتار السلطة بهذه الحقوق، معتبرةً الاستجابة لها ذهاباً بهيبتها.

^{٢٥} ينطبق ذلك ليس على الأقليات فحسب، بل على كافة التكوينات التقليدية الاجتماعية: برهان غليون، المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، ط١، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩)، ص١٥.

^{٢٦} توفيق، مصدر سبق ذكره.

كان ما حدث هنا باستنارة قضية الأطفال والموقوفين حورانياً في سياق التعامل غير اللائق مع وفد الأهالي، شبيهاً نسبياً باستنارة عائلة البوعزيزي لأهل ولاية سيدي بوزيد للتضامن معها بعد اشتعال ابنها في صيغة "واهاما" في مواجهة عسف السلطات^(٢٧). هكذا اتخذت انتفاضة درعا شكلاً أهلياً من أشكال "القومة" أو "الانتفاضة" الأهلية الشعبية الحضرية لمدينةٍ مهمّشة، يرتفع تمثيلها في أجهزة الدولة، لكن تتفاهم هامشيتها وطرفيتها في شروطٍ جديدةٍ. وكما أن صفة الشرطة للبوعزيزي، أو قيامه بحرق نفسه، لا يفسر وحده اندلاع انتفاضة سيدي بوزيد، فإن حادثة العميد لا تفسر انتفاضة درعا؛ إذ لا تضطلع الصفة في المشهد التونسي أو الإهانة في المشهد الدرعي الحوراني بأكثر من وظيفة العنصر العشوائي أو المفاجئ في سلسلة أسبابٍ تتقطع عند نقطةٍ ما، وتطلق سيرورة جديدة. وهي مجازياً تماثل إشعال عيدان الثقاب فوق برمبل يغلي بالاحتقانات الاقتصادية-الاجتماعية-السياسية والثقافية التي أنتجت سياسات النظام التسلسلي المتبلر اقتصادياً، أو ما يمكن دعوته بمصطلحات عزمي بشارة بـ"القابلية للثورة"^(٢٨)، أو تحوّل دخان عود ثقابٍ إلى عمود دخانٍ كثيفٍ. فكان ممكناً تماماً في شروطٍ أخرى أن تمرّ حادثة صفع الشرطة التونسية للبوعزيزي أو إهانة العميد لوجهاء درعا ونسائها من دون أن تثيرا أيّ ردود فعلٍ صاخبةٍ، أو أن ينتهي الردّ عليها في إطار ما يُعرف بـ"فورة الدم".

انهارت القوة الأمنية أمام السيل البشري الجارف والغاضب. بعد نحو ساعتين وفي حدود الساعة الثالثة والنصف، حطّت أربع مروحيات استدعاها رئيس فرع الأمن السياسي تحمل جنوداً مختصين بمكافحة الإرهاب ويرتدون زيّاً أسود، فتوهم المتظاهرون أنهم من رجال حزب الله، وقام جنود المروحيات بإطلاق الرصاص على المتظاهرين. وقع قتلى وجرحى فوراً، ومنع رئيس الفرع سيارات الإسعاف من نقل الجرحى إلى المشافي، فتمّ نقلهم إلى الجامع العمري، وأقيم مشفى ميداني فيه بينما كان الأطباء يستغيثون من مآذن المساجد بالنجدة دون جدوى^(٢٩). ووصل في الوقت نفسه وفدٌ أمني-سياسي عالي المستوى برئاسة اللواء هشام اختيار رئيس مكتب الأمن القومي المشهور بإدارته للأزمات لإطفاء الحريق. وبرز خلال هذه اللحظات أحد الأشكال الأولى لارتباك أجهزة السلطة بين الحلّ السياسي بطريقة استخدام "القوة الناعمة" وبين الحلّ الأمني بطريقة استخدام "القوة القاسية". فقد توافقت اللجنة الأمنية المركزية برئاسة اللواء هشام اختيار مع وجهاء درعا على ١٣ نقطة كان في مقدمتها إقالة رئيس فرع الأمن السياسي والمحافظ، وطرده "شركات رامي مخلوف" كلّها من درعا، والاعتذار للأهالي، ومقابلة الوجهاء للرئيس، والإصلاح السياسي وإطلاق الحريات، وعودة المعلمات المنقبات المفصولات من سلك التعليم إليه، وإلغاء القوانين المجحفة

^{٢٧} مقابلة شخصية أجراها الباحث في ٢٢ نيسان/أبريل ٢٠١١ في الدوحة مع أمين بوعزيزي أحد ناشطي انتفاضة سيدي بوزيد.
^{٢٨} عزمي بشارة، "الثورة والقابلية للثورة"، منشورة على الموقع الإلكتروني للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، في انتظار نشرها في كتاب:
 =http://www.dohainstitute.org/Home/Details?entityID=٩٠d٧٩٣a٤d٧٩١-٨٨٣٤-٤٨٠٧-٩b٦٣f-٨٣f٢٥a٦&resourceId=٤٤٣dd٥cbb٩٢d

^{٢٩} <http://www.youtube.com/watch?v=PVgt-i8fVm8>

عبد الحميد توفيق، قارن مع مداخلة يوسف أبو رومية عضو مجلس الشعب السوري عن درعا في مجلس الشعب يوم ١ نيسان/أبريل ٢٠١١.

المتعلقة بالاتجار بالأراضي مثل القانونين رقم (٤٨) ورقم (٢٦)، وخفض أسعار المحروقات، وإقالة محافظ درعا، وبعض مطالب محلية أخرى. ونقل اختيار إلى الوجيهاء موافقة الرئيس على هذه المطالب^(٣٠). فبات الأهالي ينتظرون تنفيذها. ولكن مجموعة من المسلحين الملتزمين يمتطون الدراجات النارية قامت بعد ساعاتٍ من تفاهم اختيار-الصياصنة بإطلاق النار على المتظاهرين^(٣١). وقتل بين الساعة السادسة والثامنة مساءً أربعة أشخاص، كان أولهم الشهيد أكرم الجوابرة^(٣٢) في سياق فتحته "جمهرة الحريقة" قبل نحو شهر بصرخة المقهورين "خاين اللي بيقتل شعبه". وبذلك صبّ القتل الزيت على النار، وقاموا بأول عملية إعدامٍ علنيةٍ لأخلاقية الدولة من خلال ممارستها للعنف المفرط خارج القانون، ووضعوا أولى لبنات استراتيجية الحلّ الأمني باستخدام "القوة القاسية" أو المفرطة ضدّ المتظاهرين والمحتجين، للإبقاء يائسين على وضع المُدَلّ المهان للمدينة المنقضة، بدعوى حماية "مهابة الدولة"، بينما اتهمت الرواية الرسمية بعض "المندسين" بين المتظاهرين بـ"إحداث الفوضى والشغب ملحقين أضراراً بالممتلكات العامة والخاصة"^(٣٣)، وطوّرت خطابها لاحقاً بوصفه طرفاً ثالثاً "مندساً مسلحاً". وبدءاً من هذه اللحظات سينسب دور "الفعل الشرير" لهذا الكائن "الخفيّ المندس" الذي يظهر ويختفي حسب قواعد اللعبة المرسومة في مسرحية "الشر" ضدّ الناس البسطاء المغمورين المطالبين بتحقيق كرامتهم. ونتيجة ذلك، تأخّر صدور مرسوم إقالة المحافظ فيصل كلثوم وقرار رئيس فرع الأمن السياسي العميد عاطف نجيب اللذين كان مرتقباً صدورهما في اليوم نفسه^(٣٤).

ويقودنا هذا إلى إمكانية استنتاج أنّ هذا التأخر كان يعكس وجود مراكز قوة في القيادة السورية العليا ترفض اتّخاذ أيّ إجراءٍ اتّهامي أو عقابي بحقّ كلّ من المحافظ والعميد بدعوى الحفاظ على هيبة الدولة^(٣٥)، بينما

^{٣٠} مداخلة الشيخ أحمد الصياصنة إمام الجامع العمري وتضمنت المطالب التي قدمها وجهاء درعا ووعِدوا بتنفيذها، ٢٢ آذار/مارس ٢٠١١ مع نشرة أخبار قناة العربية، www.youtube.com/watch?v=IVNzMMdA43g.

يسمح منطق الأحداث باستنتاج أن هناك جهاتٍ أخرى في النظام قد تعمدت أن تقسد على اختيار رئيس مكتب الأمن القومي في القيادة القطرية ما توصل إليه من تسوية، وهو المكتب المسؤول سياسياً عن الأجهزة الأمنية. وسببنا تطور الأحداث أن عملية الإفساد هذه قد حصلت أكثر من مرّة، وفي كلّ مرة يتمكّن فيها اختيار من تحقيق أسس تسويةٍ معيّنةٍ لأزمةٍ كبيرةٍ.

^{٣١} عبد الحميد توفيق (مقابلة)، مصدر سبق ذكره.

^{٣٢} - بي بي سي، "سورية مقتل ٤ في مظاهرة بدرعا"، ٢٠١١/٣/١٨،

http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2011/03/110317_arrsests_syria.shtml

^{٣٣} بنّت وكالة الأنباء السورية "سانا" الخبر في اليوم التالي ٢٠١١/٣/١٩ بالشكل التالي: "خلال تجمع عدد من المواطنين في محافظة درعا البلد

بالقرب من الجامع العمري بعد ظهر أمس الجمعة استغل بعض المندسين هذا الموقف وعمدوا إلى إحداث الفوضى والشغب ملحقين أضراراً بالممتلكات العامة والخاصة وقاموا بتحطيم عدد من السيارات والمحلات العامة وحرقها ما استدعى تدخّل عناصر حفظ الأمن حرصاً على سلامة المواطنين والممتلكات، فاعتدى عليهم مثيرو الشغب ثم تفرقوا. وتزامن ذلك مع تجمع آخر في بلدة بانيناس انتهى دون أيّ حوادث تذكر"

<http://www.sana.sy/ara/336/2011/03/19/337418.htm>

^{٣٤} عبد الحميد توفيق (مقابلة)، مصدر سبق ذكره.

^{٣٥} هذا الاستنتاج مبني على أن عملية إقالة المحافظ قد تأخّرت نحو أسبوع، كما تأخر تشكيل لجنة التحقيق في أحداث درعا نحو أسبوعٍ آخر. وقد أتم عمل هذه اللجنة بالبطء نتيجة ما واجهته من مصاعب، وسلّمت في المحصلة تقريرها، لكن تأخر إعلان نتائج التحقيق حتى ١٢ حزيران/يونيو ٢٠١١ أفقد قراراتها وظيفتها في عملية "إدارة الأزمات"، ولم ينشر من نتائج تحقيقها سوى ما يلي: "بناءً على التحقيقات التي تمّت في مدينة درعا، قرّرت "اللجنة" منع سفر محافظ درعا السابق فيصل كلثوم والعميد عاطف نجيب"، مشيرةً إلى أنه لا توجد حصانة لمن قام بجرم مشهود، موضحةً أنّ إجراءات اللجنة أكثر من كافية لتطبيق القانون على الجرائم المرتكبة (الوطن السورية، ٢٠١١/٦/١٣). وكان هذا القول يعني اتهام المحافظ والعميد ضمناً بـ"ارتكاب جرم مشهود".

أخذت المتابعة الدولية لما يجري في سورية تظهر، وتبرز دخول لاعبٍ جديدٍ على خطِّ الأحداث هو اللاعب الدولي^(٣٦).

وفي التشييع الحاشد للشهداء الأربعة في اليوم التالي، ردّد المشيِّعون الغاضبون هتافات تطالب بالحرية وتنتهم السلطات بالخيانة. واستخدمت قوّات الأمن السورية قنابل الغاز المسيل للدموع ضدّ مئات المشيِّعين ممّن شاركوا في الجنازة، كما استمرّت التظاهرات أمام الجامع العمري حتى يوم الجمعة التي أطلقت عليها تسمية "جمعة الغضب" في ٢٠١١/٣/١٨. وتكرّر مشهد الصدام مع المتظاهرين، ممّا أدى إلى مقتل أربعة متظاهرين تمّ تشييعهم يوم السبت ٢٠١١/٣/١٩. وشارك في التشييع ما يقرب من خمسة آلاف شاب، رفعوا شعارات هتفت للشهيد والحرية^(٣٧).

حاولت السلطة أن تحتوي ما ورّطها فيه أسلوب "القوة القاسية"، بمواصلة أسلوب "القوة الناعمة" من خلال إيفاد وفد رسمي عالي المستوى برئاسة اللواء هشام اختيار رئيس مكتب الأمن القومي للاجتماع بلجنة الوجهاء التي يتصدّرها الشيخ أحمد الصياصنة إمام الجامع العمري، وتقديم التعازي إلى ذوي الشهداء، والوعد بالتحقيق فيما حدث، ومحاسبة المسؤولين عنه، والإفراج عن المعتقلين، ونقل توجيه الرئيس بعدم إطلاق النار على المتظاهرين^(٣٨). وتقاوم لقاء اختيار-الصياصنة على تلبية مطالب أهالي درعا، والإفراج عن الأطفال الموقوفين بقضية كتابات الجدران، الذين لم يكن قد تمّ إطلاق سراحهم بعد^(٣٩). وفي اليوم التالي (٢٠١١/٣/١٩)، شكّلت الحكومة بالفعل لجنة في وزارة الداخلية للتحقيق في الأحداث التي وقعت في محافظة درعا. ووعدت بأنه سيتم اتّخاذ الإجراءات اللازمة ومحاسبة كلّ من يثبت التحقيق مسؤوليته أو ارتكابه لأيّ إساءة في هذه الأحداث^(٤٠). لكن تشكيل اللجنة لم يشف غليل الأهالي المتكولين، فقد كانوا يتوقّعون قيام الرئيس نفسه بالتعزية والاعتذار من الأهالي عمّا حدث^(٤١)، كما ظلّ كلّ من العميد رئيس فرع

^{٣٦} في اليوم نفسه دعا متحدث باسم مجلس الأمن القومي الأميركي حكومة سورية إلى أن تسمح للشعب السوري بالتظاهر بحرية، وحجّتها على محاسبة المسؤولين عن العنف ضدّ المتظاهرين وعن انتهاكات حقوق الإنسان (الجزيرة نت: "واشنطن تدين مقتل متظاهرين في سورية"، ٢٠١١/٣/١٩، <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/C0E183AB-62A6-4E03-9AAD-8E6F006D027A.htm>). كما أعربت مسؤولة العلاقات الخارجية في الاتحاد الأوروبي كاترين آشتون عن "قلقها العميق" من العنف ضدّ المتظاهرين في سورية، وقالت في بيان أصدرته "إن السلطات في سورية ملزمة بضمان أمن المتظاهرين المسالمين واحترام حقّ التعبير والتجمع" (الجزيرة نت: "مقتل ٤ أشخاص يؤجج الأحداث في سورية"، ٢٠١١/٣/١٩).

<http://www.aljazeera.net/NR/exeres/6CE3604F-C004-4108-BE57-0F3714CC690F.htm>

^{٣٧} كما اعتبر الأمين العام للأمم المتحدة بان كيمون أن استخدام العنف ضدّ المتظاهرين في سورية أمر "غير مقبول على الإطلاق". وقال مارتن نسيركي المتحدث باسم بان كي مون إن "الأمين العام يحضّر السلطات السورية على تجنب العنف والتصرف بما يتناسب والتزاماتها الدولية فيما يتعلق بحقوق الإنسان التي تكفل حرية الرأي والتعبير، بما في ذلك حرية الصحافة والحقّ في التجمع السلمي". قارن مع: (اليوم السابع: "الأمم المتحدة تدين قمع المتظاهرين في سورية"، ٢٠١١/٣/١٩، <http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=372450&SecID=88>، "الجزيرة نت"، "مقتل ٤ أشخاص يؤجج الأحداث في سورية"، ٢٠١١/٣/١٩).

<http://www.aljazeera.net/NR/exeres/6CE3604F-C004-4108-BE57-0F3714CC690F.htm>

^{٣٨} - عبد الحميد توفيق (مقابلة)، مصدر سبق ذكره. حول رواية شبه رسمية، ويظهر فيها مقطع يتحدث فيه اللواء رستم غزاله مع الوجهاء مؤكداً أن الرئيس فوجئ بما حدث وبأنه سيحاسب أي مسؤول عمّا حدث مهماً كان منصبه، وأن درعا تحتل مكانةً كبيرةً لديه.. الخ. قارن مع: "القصة الكاملة التي لم تعرضها قنوات الفتنة" على موقع زنوبيا الإخباري وعرين سورية "فيسبوك"، على الرابط:

<http://www.youtube.com/watch?v=4tCdT9cBhcl&feature=related>

^{٣٩} توفيق، مصدر سبق ذكره. ويذكرها توفيق في شهادته المسجّلة تحت اسم الإفراج عن المعتقلين، والمقصود بهم أطفال الكتابات.

^{٤٠} سانا، "مصدر مسؤول: تشكيل لجنة للتحقيق في أحداث درعا ومحاسبة كل من تثبتت مسؤوليته بها"، ٢٠١١/٣/٢٠،

<http://www.sana.sy/ara/336/2011/03/20/337555.htm>

^{٤١} يوسف أبو رومية، <http://www.youtube.com/watch?v=PVgt-i8fVvM8>

الأمن السياسي والمحافظ طليق في بيوتهما، بينما كانت الطريقة "الدرعاوية" في الحلّ تستوجب اتّخاذ إجراءاتٍ ملموسةٍ في حقّهما، تُقنع الأهالي بجديتها، وتحوّل شعارات "الثأر" التي تتم عادةً خارج القانون إلى عقوبةٍ يحددها القانون، فالشعب بطبيعته لا يثق إلا بما هو ملموس يصدّقه قلبه، وتستجيب له مشاعره.

اضطرابات ٢٠ آذار/مارس: اعتصام الجامع العمري أو "ميدان تحرير" درعا غير المنجز

تطوّرت حركة الاحتجاجات إثر ذلك بشكل سريع، وأخذت في ٢٠ آذار/مارس شكل اضطرابات وتظاهرات شغب تمّ فيها إضرار النار في مباني قصر العدل، وإزالة نصب الرئيس الراحل حافظ الأسد، (وهي المرة الأولى التي يشهد نصبه مثل هذا العمل)، وحرقت بعض الشاحنات والسيارات المتوقّفة أمامه، وإضرار النار في مبانٍ حكوميّة وفي مباني شركتي الاتصالات "سيرياتيل" و"م.تي.ان" اللتين تحتكران الاتصالات في سورية، وشكّلت إعاقتها لدخول المشغل الثالث قصةً شعبيةً سائرةً عن احتكار النخبة العليا من رجال الأعمال النافذين و"حلفائهم" في السلطة للثروة. وتجدّد وقوع الجرحى وسقط شهيد واحد، وضاعت المشافي عن استيعاب المصابين بسبب استخدام القنابل المسيلة للدموع التي لم يتعوّد عليها المتظاهرون، ووقوع عشراتٍ من الجرحى. فتحوّل (الجامع العمري) إلى مشفى ميداني عالج في الواقع حالاتٍ محدودةً جداً، وإلى نقطة تمركز لمئات المتظاهرين بعد دعوة خطباء المساجد لتشكيل سياجٍ شعبي حوله للحيلولة دون دخول سلطات الأمن إليه وتوقيف بعض الجرحى. وبهذه الطريقة كانت الخيام قد نصبت في ساحة الجامع الخفيّة، في تكرارٍ مصغّرٍ وبسيطٍ لنموذج "ميدان التحرير" المصري^(٤٢)، وأمّهلت السلطات حتى يوم الجمعة ٢٥ آذار/مارس ٢٠١١ لتلبية المطالب التي تم الاتفاق عليها بين وفد اللواء اختيار وبين شيوخ درعا، وجرى التهديد باستمرار الاعتصام إن لم يتمّ ذلك. وتمّ تشكيل ثلاث لجانٍ شعبيةٍ (لجنة تنظيم للاعتصامات واستقبال الضيوف والمتضامنين، لجنة تأمينٍ للمؤن والطعام، ولجنة من أجل المساعدة الطبية)^(٤٣)، لقيادة عملية المواجهات المحتملة مع أجهزة الأمن، وبهذا الشكل بدأت الحركة الاحتجاجية تكتسب أولى أشكالها المنظّمة، ويبرز فيها دور القيادات التي تنتمي إلى شبابٍ من الفئات الوسطى.

في يومي ٢١ و٢٢ آذار/مارس ٢٠١١، كان الوضع هادئاً تماماً في درعا، ولم يحصل أيّ تماس خطر بين قوات الجيش المحيطة بالجامع العمري على بعد قرابة مئتي متر وبين المعتصمين باستثناء محاولة بسيطة من قوات الجيش لخرق السياج البشري ردّها المعتصمون^(٤٤).

^{٤٢} محادثة شخصية أجراها الباحث مع الكاتب والناشط حسين العودات يوم ١٢ نيسان/أبريل ٢٠١١، قارن حول المادة الإخبارية البحتة مع بي بي سي، "استمرار التوتر في مدينة درعا"، ٢٠١١/٣/٢٢:

http://www.bbc.co.uk/arabic/worldnews/2011/03/110322_syria_us.shtml

^{٤٣} ورقة خلفية للباحث حمزة مصطفى، باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

^{٤٤} المصدر نفسه.

مداخلة الشيخ أحمد الصياصنة إمام الجامع العمري في ٢٢ آذار/مارس ٢٠١١ في نشرة أخبار قناة العربية،

بين القوة اللينة والقوة القاسية: حدود الواقعي والمتخيل في نظرية "المؤامرة"

يبدو أن منطق الأحداث يسمح باستنتاج أنه قد كان هناك في القيادة السورية "الفعلية" طرفٌ يؤمن بأساليب "القوة اللينة" والتسوية السياسية بالتفاهم مع وجهاء درعا، وحلّ "المشكلة" بالطريقة الدعاوية، مقابل طرف قويٍّ يمثل قوةً "شرسةً" و "ضاربةً" اعترض على تلبية المطالب التي تمّ التفاهم عليها في اجتماعات اختيار-الصياصنة، وتمسك برفض الاستجابة للمطالب قبل فضّ اعتصام الجامع العمري بدعوى أنّ ذلك يقوّض هيبة السلطة، ويشجّع "المتأمرين" على تجذير مطالبهم ورفع سقفها. فأخّر هذا الطرف إقالة محافظ درعا لمدة أسبوعٍ تقريباً، كما حال دون توقيف رئيس فرع الأمن السياسي، وتمسك بعدم الإفراج عن الأطفال الموقوفين، ناسجاً نظرية "المؤامرة".

دار بالفعل تقدير موقف عن أنّ ما يحصل في درعا ليس إلّا جزءاً من خطةٍ مؤامراتيةٍ كبرى لتحويل درعا إلى بنغازي سورية، وتشكيل مجلسٍ انتقالي فيها بقيادة نائب الرئيس السابق عبد الحليم خدام، وأنّ إقامة المشفى الميداني في الجامع العمري جزءٌ من هذه المؤامرة^(٤٥).

وكشفت دائرة صنع القرار منذ اللحظة الأولى عن خطأ قراءتها للأحداث، لكن تصريح المعارض السوري مأمون الحمصي بتورط عناصر "حزب الله" في يوم ١٨ آذار/مارس ٢٠١١ في قمع المتظاهرين السلميين جاء بمثابة "هدية السماء" لجماعة الحلّ الأمني، بغضّ النظر عن مدى قصده لذلك، أو محاولته العمل منذ البداية لاستغلال زخم التركيب السني للمتظاهرين والتركيب السنوي لبعضهم في إطار توجيه الصراع المندلح صوب معادلاتٍ إقليميةٍ تتصل بتغيير تموضع سورية الاستراتيجية في صراعات الإقليم^(٤٦). لكن هذا الشعار ضدّ حزب الله وإيران سيتحوّل بعد فترةٍ من التطور إلى شعارٍ سائدٍ في التظاهرات ومقبولٍ منها، وسيلعب دوراً أساسياً بالنسبة إلى كثيرٍ من المتظاهرين في انتشاره، وهو "النكايّة" بالنظام كـ"كنايّة طائفية"،

^{٤٥} قصة خطة خدام المفترضة في تحويل درعا إلى بنغازي كما بنت الأجهزة الأمنية تقديراتها الاستباقية لها، مستمدة من حواراتٍ أجراها الباحث مع بعض المقربين جداً من الحلقة العليا في هذه الأجهزة. وفي الواقع تم تحويل الجامع العمري في ١٨ آذار/مارس ٢٠١١ إلى مشفى ميداني بسبب منع العميد عاطف نجيب رئيس فرع الأمن السياسي سيارات الإسعاف من نقل الجرحى إلى المشافي، فتمّ تجهيز المشفى العمري (يوسف أبو رومية، <http://www.youtube.com/watch?v=PVgt-i8fVm8>)

^{٤٦} اتهم المعارض السوري مأمون الحمصي في مداخلة له في نشرة أخبار قناة "العربية" في ٢٠ آذار/مارس ٢٠١١ "الولفأ من حزب الله بدخول جامع بني أمية الكبير بدمشق، وقيامهم بضرب المصلين والاعتداء عليهم بالسكاكين، مما أدى إلى وقوع عشرات الشهداء والجرحى؛ وأن بعض الجرحى كانوا لبنانيين. (فما الذي جاء بلبنانيين إلى الجامع؟) وأكد على "صدقية" ما يقوله وأنه ليس ممن يتكلمون "كلاماً" فيه "تجن أو افتراء". وكان كل ما تحدث عنه الحمصي مختلفاً بصورة تامة عن الواقع. قارن مع: <http://www.youtube.com/watch?v=9mtv0dx7KJc> بينما كان ما حدث في تشييع شهداء درعا قريباً مما يلي: ووجه هذا الشعار بعملية تطويق شارك فيها عدد من الفاعليات، وكان في عدادهم قياديو حزب الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي المعارض الذي يتميز فرعه في درعا بقوة نسبية بالقياس إلى حجم القوى السياسية، واعتقل بعض قادته في سياق حملة الاعتقالات، (مقابلة الباحث مع رجاء الناصر) بينما يشير آخرون إلى أن هذا الشعار كان قد أطلق عفويّاً بشكل محدود وعابر بسبب اللباس الأسود لمفازز حرس النظام، فاعتبروه عن تهور -أو سوء نية أو حالة انفعال- لباس "الحرس الثوري". محادثة سبق ذكرها مع حسين العودات (محادثة الباحث في ١٣ نيسان/أبريل مع حسين العودات (٢٠١١).

وليس بالضرورة "العداء" لـ "حزب الله"، فقبل ثلاث سنوات فقط كان "حزب الله" يمثل قُدوةً لدى الشعب السوري في مواجهة إسرائيل. ولم يحدث شيءٌ خطير يدفع الشعب السوري لتغيير ذلك سوى المواجهة مع النظام، كما أنه ليس هناك في سورية أي مشروع تشييعي تبشيري مثيرٍ يسمح بتبرير ذلك^(٤٧). لكن عملية الدمج بين العداء للنظام، وللنظام الأمني تحديداً وبين العداء لحزب الله وإيران كانت تستمد مصدرها بالنسبة إلى البيئات التي رددت هذا الشعار من حقيقة الضخّ السلفيّ الدعويّ الخليجيّ الكثيف ضدّ الشيعة عموماً، وتركيز هذا الضخّ على ما سميّ سلفياً بـ "التحالف الشيعي-النصيري"^(٤٨) الذي فسّر التحالف الاستراتيجي العسكري والتقني والسياسي السوري-الإيراني حول الصراع مع إسرائيل بمفردات التحالف الفئوي الطائفي الضيقة. ويمثل ذلك تعبيراً عن نمط الوعي الزائف أو المقلوب الذي يظهر هنا في شكلٍ محدّدٍ في صورة وعي مشحونٍ طائفيّاً.

لقد كانت هذه "المؤامرة" المنظومية نتاج تقدير موقف افتراضي واستباقي ليس في عناصره الفعلية الموضوعية التي لا تدعّمه سوى حصّة صغيرة من الحقيقة، وهي حصّة تبقى حتى ذلك الوقت في إطار "الخطة" وليس التنفيذ الفرعي، ولكن تمّ تكبير هذه الحصّة وجعلها الحصّة الأكبر في التقدير، وبناء سيناريو "المؤامرة" على أساسها. وتتكفّف حدود هذه الحصّة في انكشاف مجريات الاتصالات السريّة التي أجراها بعض رجال الأعمال السوريين في الخارج ممّن وجدوا أنفسهم منخرطين في معركة "تأر" مع النظام حول مصالح انتزعت منهم لصالح شبكة رجل الأعمال رامي مخلوف، أو لدواعٍ أبعد بالاستعداد لتمويل وتسليح كافة الحركات من الرقة إلى درعا، أو لا تربطهم مصالح اقتصادية عضوية مع شبكة رجال الأعمال الجدد المقربة من مراكز القرار في سورية. وكان لهؤلاء على ما يبدو علاقات مع شبكاتٍ محترفة قادرة على إيصال السلاح إلى النقطة المختارة في سورية، وتسليمها في الميدان^(٤٩). ويبدو أنّ بعض المحسوبين على تيار المستقبل الذي يُعتبر من أكثر التيارات اللبنانية اختراقاً في لبنان قد دخلوا في خطّ هذه الصفقات^(٥٠).

^{٤٧} الحقيقة أن سورية شهدت نشاطين تبشيريين أو دعويين أولهما شيعي والثاني وهابي، وقد تركز النشاط الأول في أوساط الطائفة العلوية أكثر ممّا انتشر في الأوساط السنية، بينما تركّز الثاني في عدة مناطق أبرزها السلمية.

^{٤٨} قارن مثلاً مع حلقات "التحالف الشيعي-النصيري" على موقع الشيخ محمد سرور زين العابدين:
<http://www.surour.net/index.php?group=view&gid=6&rid=833>

^{٤٩} مقابلة شخصية أجراها الباحث مع الدكتور هيثم مناع رئيس اللجنة العربية لحقوق الإنسان بباريس في ٣٠ تموز/يوليو ٢٠١١ بالدوحة.

^{٥٠} كشف المعارض السوري البارز والنشيط هيثم مناع عن جزء من هذه الاتصالات علنياً في ٣١ آذار/مارس ٢٠١١، متحدّثاً على الملأ عن تلقيه ثلاث مراتٍ عرضاً بتسليح الحركات من "الرقة إلى درعا" من قبل جهاتٍ لم يعينها في هذا الحديث. ورفضه لها. حول تصريح مناع يمكن الرجوع إلى رابط قناة الجزيرة:

http://www.googleusercontent.com/1.php?u=http%3A%2F%2Fwww.youtube.com%2Fwatch%3Fv%3DDLJspk3E1Wc%26feature%3Dplayer_embedded&h=7e7e4

وإزاء ارتباك ناشطي المعارضة السورية في الداخل بفعل هذا التصريح، وزيادة الضغوط عليه بكشف هذه الجهات، أفصح مناع عن أن إحداهما كانت من جهة لبنانية، وأن ثمة من يتلقّى راتباً شهرياً من الحريري في الداخل السوري"

www.almanar.com.lb/articletoword.php?nm...eid=31233...0

وحّد مناع الجهات التي يههما أمر التسليح بجهات أميركية أو لها علاقة بالإدارة الأمريكية. وجهات لبنانية تلقّت ضربات قاسية سياسياً من النظام السوري مؤخراً، وبعض الذين جمعوا ثروات في المهجر ولهم أحقاد وثارات وليس عندهم قضية أو لهم علاقة من قريب أو بعيد بالوضع الداخلي السوري. وحول علاقة بعض الأطراف اللبنانية بما يجري في سورية، صرّح مناع بأن ثمة من يتلقّى مرتباً في آخر الشهر من (رئيس حكومة تصريف الأعمال اللبنانية) سعد الحريري ليتحدّث عن حزب الله أكثر ممّا يتحدّث عن الشعب السوري". مما لاشك فيه أن تداعيات قصة اغتيال الحريري والمحكمة الدولية في زمن تقارير ميليس قد ترجمت بدعم أجهزة المستقبل مالياً لبعض شخصيات المعارضة السورية في "إعلان دمشق" وليس كلهم، وتسهيل إقامتهم، وتولي نفقاتهم، وتقديم بعض الخدمات بأشكال شتى لهم في إطار الاستقطاب مع الحكم في دمشق (ثمرة حوارات مع الدكتور رضوان

وكان بعضهم قد بحث بكل الوسائل عن خيطٍ ما يربط بين "جمهرة" الحريقة في ١٧ شباط/فبراير ٢٠١١ وبين مؤامرات خدام، ورفض استبعاد دور تلك المؤامرات في ما حدث. ويتسق ذلك مع جوهر المنطق الأمني السوري في الشك، وقراءة كل "حدثٍ جليلٍ" بمنظور "المؤامرة" الخارجية، ذلك أنّ التربية الأمنية تُنتج بطبيعتها منطقاً تفكيرياً لدى المحترفين الذين يشكّل الأمن عالمهم اليوميّ يرى في كلّ شيء "مؤامرة"، وأن "سوء الظنّ من حسن الفطن"، وأنّ الحياة ليست إلاّ عبارة عن "مؤامرة". وهذا المنطق على مستوى البنية جزءً من عالم المحترفين الكبار الذين ينظرون إلى العالم من منظور عالمهم اليوميّ المهنيّ. ومثل ذلك أنّ "الحياة مفاوضات" لمن تشكّل المفاوضات الجزء المهيمن على حياته اليومية، أو "الحياة مصالح" لمن يشكّل عالم الأعمال عالمه اليوميّ.

افتحام الجامع العمري: خطيئة اللغام

ما كاد الرئيس السوري يصدر -لكن بشكلٍ متأخّرٍ جداً في الواقع بالقياس إلى تسارع وتيرة الأحداث- في ٢٢ آذار/مارس المرسوم رقم (١٢٠) القاضي "بإعفاء فيصل كلثوم من مهامه كمحافظٍ لمدينة درعا"^(٥١)، حتى وجّهت القوّة العسكرية التي تحيط بالمسجد العمري إنذاراً لمن تبقى من معتمسين، يناهز عددهم نحو خمسمئة معتمسٍ في ساحة الجامع الخلفية، لتفكيك الخيام المنصوبة، وإخلاء الجامع فوراً^(٥٢). كان ما حدث في اليوم نفسه هو وقف زحف أهالي مدينة داعل للتضامن مع أهل درعا بالصلاة في الجامع العمري، فقتل على الفور ثلاثة متظاهرين^(٥٣). وصيغت الذريعة الأساسية لفضّ الاعتصام بالقوّة بعدم وفاء وجهاء درعا بوعدهم بتفكيك نقاط الاعتصام، وعودة الهدوء إلى المدينة مقابل انسحاب القوي الأمنية من المدينة. لكن هذه القوّة لم تعط المعتمسين أكثر من مهلة ربع ساعة، وكانت المهلة غير واقعية. وفي فجر يوم الأربعاء ٢٣ آذار/مارس، هاجمت هذه القوّة المعتمسين، واستخدمت من جديد القوّة المفرطة، وتجدّد سيناريو القتلى والجرحى، وبضربةٍ واحدةٍ تمّت استنارة الذاتية الإسلامية التي اعتبرت ضرب الجامع العمريّ جزءاً من سياسة ضدّ الإسلام وليس مجرد عمليةٍ عسكريّة. ويبدو أنّ عملية الهجوم قد تمّت لقطع الطريق أمام تلبية المطالب التي تمّ الاتفاق عليها بين شيوخ درعا وبين اللواء اختيار، والتي كان المعتمسون في المسجد

السيد مستشار الرئيس اللبناني سعد الحريري يومئذ). وقد ظلت قوى المعارضة متشككة في ما ذكره مناع معتبرة أنه قد صدر منه، ولم يتأكد من أي طرف آخر (مراسلة في ٦ تموز/يوليو من رجا الناصر مع الباحث).

^{٥١} المصدر الأصلي سانا، الوطن أون لاين: مرسوم بإقالة محافظ درعا، ٢٢/٣/٢٠١١.

http://www.alwatanonline.com/local_news.php?id=5778

أما لجنة التحقيق في أحداث درعا فتأخر تشكيلها إلى أواخر آذار/مارس، وكان عملها بطيئاً، لكن البطء الأشد الذي يعبر عن ارتفاع حدة الخلاف الداخلي في القيادة السورية العليا كان في عملية نشر قراراتها، التي لم ينشر إلا بعد شهور بعضها.

^{٥٢} استمد الباحث معلوماته حول نصب الخيام في الجامع العمري وفي ساحته الخلفية وتقدير تقريبي لعدد من تبقى من المعتمسين، وإنذارهم بإخلاء الجامع خلال ربع ساعة، من الأستاذ حسين العودات في محادثة شخصية يوم ١٢ نيسان/أبريل ٢٠١١.

^{٥٣} عبد الحميد توفيق، (مقابلة) مصدر سبق ذكره.

ينتظرون استجابة السلطات بتبليتها قبل يوم الجمعة ٢٥ آذار/مارس، مهديين بمواصلة الاعتصام إن لم تتم الاستجابة لها^(٥٤).

إثر ذلك، التقى وفدٌ رسمي جديد برئاسة اللواء هشام اختيار رئيس مكتب الأمن القومي في القيادة القطرية، بثلاثين شخصية ذات مكانة اجتماعية وثقافية في المدينة، والاستماع مجدداً إلى مطالبهم، التي تضمنت المطالب الوطنية الديمقراطية العامة، وإلغاء مرسوم منع الاتجار بالأرض على مسافة معينة من الحدود، والاحتجاج على اتهام المعتصمين في (الجامع العمري) بتكوين مجموعات مسلحة، والعمل على تحقيق انفراج عام^(٥٥). وكانت السلطة قد بررت اقتحامها للجامع بلجوء مجموعة مسلحة إليه بعد قيامها بهجوم مسلح على سيارة إسعاف^(٥٦). وكانت هذه أول رواية رسمية عن مجموعات مسلحة منزرعة في أوساط المتظاهرين والمعتصمين. وفي هذه اللحظات تطوّر الحديث عن "المنسّين" الذين اتهموا بالوقوف خلف حوادث "الشغب" في ١٨ آذار/مارس ٢٠١١ إلى الحديث عن "مندسّين مسلّحين" بين المتظاهرين، وفي اليوم التالي لاقتحام الجامع العمري ميّزت المستشارية الرئاسية بثينة شعبان بين "التظاهر السلمي" والأعمال المسلحة، وتحدّثت عن أن "هناك حركة مسلحة في درعا"، حولت "الجامع العمري" إلى "مخزن أسلحة"^(٥٧).

عزّزت زيارة الوفد الأمني-السياسي بعد الهجوم على الجامع العمري "نظرية الانقسام" في القيادة السياسية-الأمنية البيروقراطية العليا حول كيفية التعاطي مع أزمة درعا، بين كل من توجيهات الرئيس بتهدئة الوضع بالطرق الحوارية (أسلوب القوة الناعمة) وبين من يوتّره بأسلوب الحسم والرصاص الحيّ (أسلوب القوة القاسية)، وبين الأمر بعدم إطلاق الرصاص على المتظاهرين وبين إطلاقه وليس مجرد استخدام أنواع منه غير قاتلة. وأعدت إلى التقديرات -بشكلٍ ما- انقساماً سابقاً في القيادة السورية في العام ١٩٨٠ إبان المواجهة بين السلطة وجماعة الإخوان المسلمين، بين ما يمكن تسميته بلغة تلك الأيام بين جناح "الحوار الوطني" أو بشكلٍ أدق جناح "المصالحة الوطنية" بقيادة عبد الله الأحمر وبين جناح "الحسم الثوري" (الاستنصالي) بقيادة رفعت الأسد حول التعامل مع أزمة الثمانينيات^(٥٨)؛ والتي انتصر فيها خط رفعت

^{٥٤} مداخلة الشيخ أحمد الصياصنة إمام الجامع العمري في ٢٢ آذار/مارس ٢٠١١ لنشرة أخبار قناة العربية، (مصدر سماعي):

www.youtube.com/watch?v=IVNzMMdA43g

^{٥٥} لم يعلن رسمياً عن هذا اللقاء. محادثة في ١٣ نيسان/أبريل ٢٠١١ مع حسين العودات استناداً إلى مقابلة مع بعض أعضاء الوفد الأهلي.

^{٥٦} ذكر البيان الرسمي الذي بثته وكالة "سانا" أن "العصابة المسلحة" التي هاجمت سيارة الإسعاف، مما "أدى إلى استشهد طبيب ومسعف وسائق السيارة" كما أطلقت النار على سيارة إسعاف أخرى في درعا البلد، قد "قامت بتخزين أسلحة وذخيرة في المسجد العمري واستخدمت أطفالاً اختطفهم من عائلاتهم كدروع بشرية". واتهم البيان هذه "العصابة" ب"ترويع سكان المنازل المجاورة للمسجد العمري باحتلالها هذه المنازل واستخدامها لإطلاق النار على المارة والقادمين للصلاة. وقد تصدّت قوى الأمن لأفراد العصابة المسلحة وقامت بملاحقتهم لتقديمهم للعدالة". وتمّ اتهام جماعة الإخوان المسلمين في هذه القضية، وعرض التلفزيون السوري صوراً عن "الأسلحة والذخائر والأموال التي خزنتها العصابة المسلحة في المسجد العمري". وأظهر شريط الصور أسلحة، بينها مسدسات وبنادق كلاشينكوف وبنادق تحتوي قنابل يدوية وذخائر ومبلغاً من المال.

زياد حيدر، "قتلى جدد في درعا وصور رسمية لأسلحة وأموال"، ٢٤/٣/٢٠١١،

<http://www.assafir.com/Article.aspx?EditionID=1805&ChannelID=42425&ArticleID=2693>

^{٥٧} المصدر السابق.

^{٥٨} للاطلاع على معلومات أوسع، ومعرفة سياقاتها يمكن العودة إلى: محمد جمال باروت، في: **الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية**، تحرير: جمال باروت وفضل دراج، (دمشق، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، ١٩٩٩)، ص ٢٩٠-٢٩١. كان الباحث شاهداً في آنذاك على ذلك، وطرح الأحمر في الواقع الأمر في صيغة: "ما دمنا نطرح المصالحة الوطنية داخل الحزب، فلماذا لا نطرحها خارج الحزب؟"، ويكشف هذا الطرح عن عيوب بنبوية جسيمة تشير إلى الفجوة بين الأيديولوجيا والواقع الحقيقي للاتجاهات في الحزب الذي نمت فيه تلك الفترة عقليات مناطقية، يعتبر ممثلوها أنفسهم ممثلين لها في نوع من تضامنيات حزبية مناطقية لترتيب العلاقات الزبانية.

الأسد بدءاً من تموز/يوليو ١٩٨٠، باقتحام سجن تدمر وتصفية كل من هو مسجون وموقوف فيه من الإسلاميين.

ما بعد الجامع العمري: انقسام المؤسسة العلمانية السورية

كانت الوهابية طيلة التاريخ السوري الحديث دعوة محاصرة بقوة في سورية، ولاسيما من المتصوفة. وتعتبر في الوسط الإسلامي "تهمة" تجلب على صاحبها العزل والتطويق. وقد عزز الألباني الوهابية من باب الحديث، وكوّن حلقات نشطة له في كل من حلب ودمشق، بينما الوهابية فقه وعقيدة. وقد اصطدم التغلغل الوهابي بصخرة البوطي.

لقد برز التيار السلفي في تشكيل الأحداث ودفعها. وسرعان ما تخلت جماعة سرور عن منهجها الدعوي إبان احتدام المواجهة بين جماعة الإخوان المسلمين وبين السلطة (١٩٧٦-١٩٨٣)، وانخرطت في العمليات. وقد مثل سرور الذي كان عضواً في جماعة الإخوان المسلمين السورية ما يمكن تسميته بالسلفية الإخوانية السورية، وسبق أن حمل تياره اسم "السرورية" التي تطوّرت في النصف الثاني من السبعينيات إلى "سلفية جهادية" اختلفت يومئذ عن كل من المنهجين الإخواني والسلفي التقليديين، بمزجها المبكر بين فكر كل من ابن تيمية وسيد قطب، فأخذت "من ابن تيمية موقفه السلفي الصارم من المخالفين للسنة من الفرق والمذاهب الأخرى مثل الشيعة، وبالتالي استمدت منه "المضمون العقائدي"؛ أما سيد قطب فأخذت منه ثوريتها، وتأويله الجهادي للحاكمية المودودية^(٥٩).

بعد يومين من اقتحام الجامع العمري كانت نقطة الزيت قد اتسعت بألسنتها الملتهبة في عدّة مدن سورية مكتسبةً هذه المرة أبعاداً أيديولوجيةً مطوّرةً وحساسةً في الفضاء الاجتماعي-السياسي السوري السنّي، إذ تحوّلت السياسة العامة للحركة السلفية السورية من محاولة ضبط نزعات الشبيبة السلفية الراديكالية، بعدم شرعنة الخروج على الحكم في سورية إلى شرعنة ذلك، والتحريض عليه. وترتّب على ذلك انقسام المؤسسة الفئة المشيخيّة أو "العلمائيّة" في ميدان حركة الاحتجاجات بين مؤيّد ومعارض لها، إذ دعا كل من الشيخ مرشد معشوق الخزنوي^(٦٠) شيخ الطريقة النقشبندية إلى التظاهر و"النفير" و"الخروج" في يوم الجمعة ٢٥ آذار/مارس ٢٠١١ لإسقاط النظام، وتخصيص الدعوة لطلاب العلوم الشرعية وخطباء المساجد لقيادة

^{٥٩} يرى الشيخ سرور أن اسم طالسورية الذي أطلق على تيار "السلفية الإخوانية" أو "الإخوانية السلفية" ليس إلا اسماً اصطلاحياً للتداول والتسهيل، ومن أجل وصف هذا المتحول الجديد في العمل الإسلامي الحركي. قارن مع مشاري الداودي، طما هي قصة التيار السروري"، صحيفة الشرق الأوسط، ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤. الرابط: <http://www.aawsat.com/details.asp?article=262726&issueno=9466>

^{٦٠} هو ابن الشيخ معشوق الخزنوي، شيخ الطريقة النقشبندية الذي قتل في العام ٢٠٠٤ في سورية في ظروف غامضة، واتهم أبناؤه السلطة بتدبير عملية اختطافه واغتياله، بينما رجّح عدة شيوخ التقى معهم الباحث ويعرفون تركيبة الطريقة أن يكون قد قتل من بعض تلامذته بالفعل. ومع ذلك، لم يجر حتى اليوم نشر تحقيق رسمي في ملابسات مقتل الخزنوي. ويتسم أتباع هذه الطريقة بتماسكهم الشديد، وبتعصبهم لطريقتهم. وقد ورث الشيخ مرشد رئاسة الطريقة بعد والده.

التظاهرات بعد صلاة الجمعة^(٦١)، في الجمعة الثانية التي أطلق عليها اسم "جمعة العزة". وتحولت نداءات الشيخ عدنان عرعور؛ المشرف العام على موقع الإسلام الوسط، وهو إخواني حموي تحول إلى داعيةٍ سلفي^(٦٢)، وهو يمتلك تأثيراً معيناً في فئاتٍ شعبيةٍ متديّنةٍ واسعةٍ عبر قنواته الفضائية "صفا"؛ من تحريم الخروج على الحكم قبل اندلاع حركة الاحتجاجات إلى دعمها ونصرتها والتحريض على الانخراط فيها، وإطلاق التكبيرات من على أسطح المنازل^(٦٣)، بينما وجّه الشيخ معاذ الخطيب الحسني، الخطيب السابق للجامع الأموي، إثر اقتحام الجامع العمري نداءً إلى الرئيس يؤكد فيه "سلمية" و"عفوية" تظاهرات الشباب، ويطالب بإطلاق الحريات والإفراج عن المعتقلين السياسيين^(٦٤)، وكان في قلب مجالس عزاء الشهداء^(٦٥).

عمق ذلك الأزمة الداخلية بين طلاب العلوم الشرعية وخريجها الكثر في سورية، الذين توسّعت أعدادهم في المدن الصغيرة والمتوسطة بسبب التوسّع في نظام المدارس الشرعية الداخلية في تلك المدن. وسرعان ما حصل بعض هؤلاء على فتوى من الشيخ يوسف القرضاوي -بعد إدانته اقتحام الجامع- بشرعنة الانخراط في التظاهرات السلمية؛ لدواعٍ شرعيةٍ أو معيشيةٍ متعلقة بالغلاء والاستغلال والفقر، أو سياسيةٍ متعلّقة بالحريات والاعتقال التعسفي والظلم؛ في مرحلةٍ سيتوتّر فيها الخلاف بين المؤسسة العلمانية السورية الرسمية وبين الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين^(٦٦). وستحدث بعد ذلك بقليل المعركة الأشد بين كل من الشيخ رمضان البوطي والشيخ أحمد حسون المفتي العام من جهة، وبين كل من الشيخ يوسف القرضاوي والشيخ عدنان العرعور المشرف العام على موقع الإسلام الوسط، والذي يتّخذ من قناة "صفا" السلفية منبراً

^{٦١} دعوة الشيخ مرشد معشوق الخزنوي للثورة <http://www.youtube.com/watch?v=5Uu5yZTJX8I&feature=related> كان الشيخ الخزنوي قد وجه في ذكرى عيد النيروز في ٢١ آذار/مارس نداءً إلى "الكرد" للتضامن مع إخوانهم في سورية. للاطلاع على الخطاب راجع الرابط: <http://www.youtube.com/watch?v=iwL2T19jhyQ>

^{٦٢} ينتمي العرعور إلى جيل الستينيات من القرن العشرين في الحركة الإسلامية السورية، وقد تسلّف في سياق اجتياح نزعة التسلّف لتلك الحركة، ودرس على يد الشيخ ناصر الدين الألباني أحد ثلاثة كبار علماء الحديث في العالم الإسلامي، ثم على يد الشيخ بن باز في المملكة العربية السعودية. واشتهر، على غرار بعض السلفيين المتعصبين الذين يكادون يعتقدون بأن الله لم يخلقهم سوى لمحاربة الشيعة، بمنابراته ضد الشيعة والمتصوفة. حول تكوينه العلمي وتلمذه على دروس الألباني وابن بارز، قارن مع الرابط:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%AF%D9%86%D8%A7%D9%86_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%B9%D9%88%D8%B1

^{٦٣}http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%AF%D9%86%D8%A7%D9%86_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%B9%D9%88%D8%B1http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%AF%D9%86%D8%A7%D9%86_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%B9%D9%88%D8%B1

^{٦٤} مداخلة الشيخ معاذ الخطيب في قناة الجزيرة: <http://www.youtube.com/watch?v=MJSM2FMIGHw>
^{٦٥} كلمة الشيخ معاذ الخطيب في مجلس عزاء في ٦ نيسان/أبريل ٢٠١١ بالمعضمية.

<http://www.youtube.com/watch?v=nQJfz1DtSpk&NR=1>

^{٦٦} هاجم المشايخ المحيطون بالمفتي ووزارة الأوقاف الشيخ القرضاوي، وصدرت في البداية ردة الفعل الداخلية الأوضح على مستوى بروزها الداخلي من بعض علماء حمص، ثم تطوّرت إلى تراشقٍ مع الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين، وعودة رابطة العلماء المسلمين التي تضم شخصيات من الداخل والخارج -وتعتبر قريبة من الإخوان المسلمين- للبروز كلاعب اجتماعي-أيديولوجي محلي. وأصدر الاتحاد بياناً بدعوة الرئيس إلى تغيير الدستور وإجراء إصلاحات جذرية، وشجب الاعتقالات والتعذيب، ورفض نظرية المؤامرة الخارجية؛ بينما اختار الشيخ رمضان البوطي، -العميد الرمزي لعلماء دمشق، والذي تعتبر منزلته العلمية أعلى من منزلة المفتي وأجهزة الأوقاف، وكان من أشد المعارضين للمفتي الحالي- خط الحوار مع السلطة لتحسين المكاسب. قارن مع قسم الوثائق في موقع الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين:

http://www.iumsonline.net/index.php?option=com_content&view=article&id=1081:2011-02-06-16-06-10&catid=4:ask&Itemid=81

دعواً له، وهو ما ردّته تظاهرة في بانباس تحت شعار: "يا مفتي ويا حسون الشعب السوري ما بيخون"^(٦٧).

كان القرضاوي بطبيعة الحال من المؤثرين في الاتجاهات السلفية في سورية، وإن كان تأثيره أقرب إلى المنهجية الإخوانية منه إلى المنهجية السلفية الجديدة التي سيمثلها من ناحية التأثير في سورية الشيخ العرعور بالتحول من تحريم الخروج على الحاكم إلى شرعته في الحالة السورية. فالإسلامية الوسطية تدمج السلفية في منظورها وليس بالمعنى المذهبي النجدي أو الوهابي المحدد لها، ولذلك كانت تتبنى منذ أيام مؤسس منهجها حسن البنّا نفسها كطريقة سلفية وطريقة صوفيّة معاً. ومما لا ريب فيه أنّ السلفية كانت تشكّل في سورية حوضاً دينياً-أيديولوجياً أكثر ممّا تشكّل مدرسة بالمعنى المذهبي الوهابي. ولكن إزاء اقتحام الجامع العمري، لم يكن هناك أيّ فواصل بين الأحواض الإسلاميّة، فلقد كان اقتحام الجامع العمري بالفعل من أكثر أعمال بعض أطراف السلطة السورية "تهوراً"، وسيفسره قسم من المتظاهرين بدوافع طائفية أقلية خاصة، وهو ما سيزيد من صبّ الزيت على النار، وتصوير المواجهة على أنها في أحد مستوياتها مواجهة طائفية، وتم الرد عليه بانتشار شعارات معادية لحزب الله وإيران كناية عن شعارات ضد العلويين، وبداية استغلال ذلك على مستوى التوتر العالي في مجتمع مركّب الهوية، هو التوتر الطوائفي.

تمتاز هذه النزعات الجهوية برمتها في المدن الصغيرة والمتوسطة بشكل خاص بانتشار نمط التدين السلفي المتشدّد، الذي يمثل النمط السلفي المذهبي الوهابي، وهو نمط نخبوي أو محدود. فالتدين السلفي بالمعنى الأوّل أقرب إلى التدين الشعبي المتشدّد في مناخ سلفي إسلامي عام، ويتعلق بالسلوكيات والنمط الأنثروبولوجي للتدين في الزي والسلوك اليومي؛ بينما التدين الوهابي عقيدة وفقه معادّ تفسيره "وهايباً". ولا يعني ذلك عدم وجود تداخل بين نوعي التدين، إذ في المقابل مارست الدعوات الوهابية المذهبية ضغطاً كبيراً في تطوير أشكال التدين السلفي العام من دون أن يكون قطّ تديناً مذهبياً. فلقد كان هناك العديد ممّن تدين على مستوى نمطه الأنثروبولوجي "وهايباً" من دون أن يعرف قط أنه "وهايب". وتدخّل في هذه العلاقات "الكوريديّة" نمط التعليم الشرعيّ الدينيّ.

لقد أدكى نمط هذا التعليم سنوات طويلة من عملية التوسع في بناء المعاهد الشرعية "الداخلية" في تلك المناطق، وتخريج أعداد كبيرة من المؤهلين لشغل الوظائف "الدينية" في وزارة الأوقاف، واقتصار التوسع في الجمعيات في هذه المناطق على فروع لجمعيات دعوية دينية بسبب سياسة وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل وسياسة الأجهزة عموماً في الحيلولة دون أي نشاط جمعياتي حقيقيّ.

وربما كانت أساليب المدرّسين ومناهجهم هي المسؤولة عن قابلية التشدّد في اتجاهات خريجي المعاهد الشرعية أكثر ممّا كانت مسؤولة عنها هذه المناهج "الوسطية"^(٦٨)، فقسّم كبير من هؤلاء غداً إثر تداعيات

⁶⁷ <http://www.youtube.com/watch?v=21kidjTMuMQ>

أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ واحتلال العراق (٢٠٠٣) والحرب الأميركية على "الإرهاب" أقرب إلى "الجهادية السلفية" الممتزجة بالرّد على "المحتلّين" و"رؤوس الكفر". وفي سياق هذه الفترة، كانت سورية "مُعبراً" للمجموعات المنظّمة ممّا يسمّى بتنظيمات "القاعدة". وكان ما فعله الرئيس حافظ الأسد شيئاً يحاكي منهج السادات في "دولة العلم والإيمان"، لكن بشكلٍ مضبوطٍ، لا يستهدف توجيه الإسلاميين ضدّ اليساريين على غرار الطريقة المصرية بل احتواء الاتّجاهات الإسلامية في إطارٍ معتدلٍ، بينما حاولت الأجهزة السورية في مرحلة غزو العراق واحتلاله أن تدعم الشباب الإسلامي والذي كان معظمه إسلامياً ضدّ العدوّ المشترك لهما في مرحلة غضب العالم الإسلامي ضد الولايات المتحدة الأميركية. وتكثفت هذه المعارضة لدى الشباب الإسلامي الذي بات أسامة بن لادن يمثّل يومئذٍ قوته الكبرى في تحدّي قلاع "الشّر" الأميركي، قبل أن ترجع أسطوره إلى حدودها الطبيعية. والواقع أنّ هذه السياسة لم تكن جديدةً بالنسبة إلى الأجهزة الأمنية-السياسية السورية، فهي تعود إلى منتصف التسعينيات الماضية، واتّسمت بالتحالف مع القوى الإسلامية كلها تقريباً ما عدا جماعة الإخوان المسلمين السورية.

وإبان الاستعداد الأميركي للحرب على العراق وغزوه، طوّرت هذه الأجهزة بشكلٍ غير رسمي تحالفها مع الجماعات الإسلامية لغايةٍ مشتركةٍ هي إنهاء الأميركيين في العراق، كما هي غاية الإسلاميين السلفيين الأسمى في قتل الأميركيين الذين يمثّلون "مستودع" و"ديناميّة" الشر ضدّ الإسلام والمسلمين وفلسطين. لكن حدود فتح الباب طليقاً أمام الإسلاميين لعبور الحدود إلى العراق كانت محكومةً في النهاية بسياسات الدولة السورية. وكانت مجموعة "صقور القعقاع"، وهي المجموعة الشبابية لتنظيم "غرباء الشام" الذي يقوده الشيخ محمود غول أغاسي المعروف باسم "أبي القعقاع"، من أبرز هذه المجموعات التي شكّلت قناةً لتجنيد الشباب، وتوجيههم كمجاهدين إلى العراق. وحين توقّف القعقاع عن إرسال المجاهدين تكيّفاً منه مع اعتبارات الحكومة السورية، وأخذ يثبّط هم الشباب الجهاديين، فإنه اتّهم من قبل بعض أطراف تنظيم "القاعدة" بالعمالة للسلطات، وتسليم المجاهدين إليها. ومثّل ذلك ذريعة لاغتياله في أواخر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧. ويبدو أنّ الحكومة السورية قد بدأت منذ العام ٢٠٠٥ التضييق على حركة التسلّل إلى العراق، فأوقفت (١٢٤٠) ممّن وصفتهم بمتطرّفين من جنسياتٍ مختلفةٍ، وسلّمتهم إلى بلدانهم عبر السفارات والأقنية الأمنية، وأخضعت أكثر من (٤٠٠٠) سوري غادروا أو حاولوا المغادرة إلى العراق بقصد القتال هناك لما وصفته بـ"التدقيق"^(٦٩).

^{٦٨} هذه الفكرة ثمرة حوارات معمقة أجراها الباحث مع فضيلة الشيخ الدكتور محمود عكام مفتي حلب في مراتٍ متعدّدة على طول سنوات ٢٠٠٥-٢٠١٠. وتركزت حول قضايا التدين السلفي "المذهبي" و"الاعتقادي" و"العلمي"، ودينامياته. وقد زودنا الدكتور عكام -مشكوراً- بمشروع أفكاره الأساسية لإصلاح التعليم الشرعي السوري، والمشروع محفوظ لدى الباحث.

^{٦٩} نصّ البيان الذي وُزِعَ على السفراء المعتمدين في دمشق قبل ظهر ذلك اليوم خلال الاجتماع مع السيد وليد المعلم نائب وزير الخارجية، أُرشيف مكتب جريدة الحياة بدمشق.

هكذا حصل في العام ٢٠٠٥ الاصطدام بين السلطة والراديكاليين الإسلاميين بشكل تصاعد طردياً مع التفاهات السورية-العراقية في سورية، وكان من أبرزها الصدام مع خلية "دفّ الشوك" الجهادية في حزيران/يونيو ٢٠٠٥. ثم تكّلت عملية تصفية الحسابات في معركة "مخيم نهر البارد" بدعم الجيش السوري والمخابرات العسكرية السورية لعملية تصفية "فتح الإسلام". ولم تصطنع الأجهزة السورية السلفيين الراديكاليين بل تحالفت معهم، ثم انقلبت عليهم، وكما كانت المصالح سبب التحالف فإنها كانت سبب الافتراق والتخاصم. وفيما يتعلق بإشكاليتنا، فإنّ قسماً من هذه المجموعات التي تمّ التكرّر لها من قبل النظام قد وجدت الفرصة مواتيةً لها للعمل في ظروف الاضطرابات و السيرورات الثورية التغييرية الجديدة في المجتمع السوري للعمل، ضد النظام في إطار جديد. وكان قسم كبير من هؤلاء ينتمي إلى ريف دمشق وجبل الزاوية.

من "جمعة الغضب" إلى "جمعة العزة": اتّساع الرقعة المجالية للاحتجاجات، والخطاب "المنتظر"

جمعة الغضب: محدودية الانتشار المجالي وعدد المتظاهرين

كان الناشطون قد تداعوا عبر صفحات موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك" إلى إطلاق "جمعة الغضب" في يوم ١٨ آذار/مارس بتظاهرات في كافة المدن السورية^(٧٠). وهي الجمعة الأولى التي حملت اسماً موحّداً موحّداً للتظاهرات. كانت هذه هي أولى مسلسلات أيام "الجمعة"، التي ستكرّس كتقليد أسبوعي تعبوي حول عنوان رمزي معيّن، يتقبل فيه المتظاهرون عنوانه، و تنطلق فيه التظاهرات من المساجد بعد أداء صلاة الجمعة. ومنذ اندلاع الحركات الاحتجاجية وحتى الآن، شكّل الجامع فضاءً "التجمع"، ونقطة انطلاق التظاهرات، بحيث اضطلعت "الجوامع" بوظائف "الحيز العام" المهمّش. لقد حلّت "الجوامع" في أداء هذه الوظيفة مكان "الحيز العام" بسبب ضموره واحتلال أجهزة السلطة السياسية والنقابية والمنظّماتية له كأدعٍ أدواتٍ للسلطة في اختراق المجتمع المدني، والتحكّم فيه. فتنحصر قدرة أجهزة الدولة على التحكم في "المسجد" أو "الجامع" في حدود تعيين خطباء الجمعة وأئمة المساجد ومضامين الخطبة عن طريق وزارة الأوقاف.

^{٧٠} فرانس ٢٤: "قتلى في مظاهرات في درعا ودعوات على الفيس بوك للتظاهر في حمص"، ٢٠١١/٣/١٩،

انطلقت الاستجابة لـ "جمعة الغضب" من المساجد، وانتشر الناشطون حيثما وجدوا في المساجد لإثارة المصلّين، وجذبهم إلى التظاهر العام، لكنّ الاستجابة في المدن السورية (ماعدا درعا الملتهبة يومئذ) كانت محدودةً وعبارة عن "بؤر" تضم ما بين عشرات وأقلّ من مئتي متظاهر. وقد تمتّ في كلّ من جامع خالد بن الوليد في حمص بمشاركة قرابة ٢٠٠ متظاهر، ردّدوا هتافات "لا إله إلا الله" و"الله سورية حرة وبس"^(٧١)؛ والجامع الأموي الكبير بدمشق، وردّد المتظاهرون الذين انطلقوا منه هتافات "حرية حرية حرية" و"الله سورية وحرية وبس"^(٧٢). وقام رجال الأمن بتفريقها^(٧٣). كما انطلقت من جامع أبي بكر الصديق ببانياس تظاهرةً أخرى. وبناءً على ذلك، كان الانتشار المجالي لحركة الاحتجاجات محدوداً بتلك البؤر. وانفردت فيها تظاهرة بانياس بعرض مطالبٍ محدّدة. وقد اتّسمت هذه التظاهرة برفع مطالب مزيجية بين مطالبٍ سياسيةٍ ومحليةٍ مطلبيّةٍ وخدميةٍ وثقافيةٍ، مثل إلغاء حالة الأحكام العرفية، وإطلاق حرية الرأي والتفكير، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين ولاسيما ظلّ الملوحى؛ ومطالب خدمية بحتة، وعودة المنقبات المفصولات من التعليم إليه، والفصل بين الذكور والإناث في التعليم، وفتح ثانوية شرعية ببانياس، وإيجاد فرص عملٍ للعاطلين عن العمل، وإقالة مدير مرفأ بانياس استجابةً لمطالب الصيادين^(٧٤). وبرز دور الشيخ أنس عيروط خطيب وإمام جامع أبي بكر الصديق في تظاهرةٍ حدثت في اليوم نفسه، وحاولت تقادي التوتير الطائفي بأن ردّدت شعار "سنيّة علوية نحنا بدنا الحرية" وظهر رجل بايع الشيخ أنس عيروط موجّها لقيادة التظاهرات، وقال: "الشيخ أنس الأمر الناهي وشو ما يقول نحنا تحت صرمايتو"^(٧٥).

جمعة العزة: الانتشار المجالي ارتفاع حجم المشاركة وشدتها:

بين "جمعة الغضب" في ١٨ آذار/مارس ٢٠١١، و"جمعة العزة" في ٢٥ آذار/مارس ٢٠١١، كانت قد وقعت عملية اقتحام الجامع العمري بمدينة درعا، والتي مثّلت الفصل الدراماتيكي والأكثر حساسيةً واستثارةً للعواطف الدينية والشعبية الساخطة، وتحريضاً لبعض الاحتقانات الطائفية المعتملة في شكل هتافاتٍ ضد إيران وحزب الله، بالنظر إلى بعض الأبعاد الرمزية الطائفية في تطوّر الأحداث. ولهذا، شكّلت عملية اقتحام الجامع في حدّ ذاتها ديناميةً جديدةً لتوسّع الرقعة المجالية لحركة الاحتجاجات، وارتفاع كثافتها

⁷¹ <http://www.youtube.com/watch?v=YSN1c6tq9nY>

والرابط : <http://www.youtube.com/watch?v=x4Vf3u6fjRY>

⁷² <http://www.youtube.com/watch?v=EBc6BVjqtig&feature=related>

⁷³ <http://www.youtube.com/watch?v=pbPj80BH8b8&feature=related>

^{٧٤} قدمت التظاهرة أحد عشر مطلباً هي: إزالة الاختلاط (بين الذكور والإناث) في المدارس جميعها، ومراقبة فواتير الكهرباء وتخفيض كلفته، وإعادة المعلومات المنقبات اللواتي نقلن من (سلك) التعليم، وعدم اعتقال أي من المتظاهرين، وإطلاق سراح المعتقلين في بانياس وسورية عموماً، وتحديدًا ظلّ ملوحى، وإيجاد المزيد من فرص العمل للعاطلين عن العمل، وإقالة رئيس الموانئ، ورفع قانون الطوارئ، والسماح بعودة المغتربين ممنوعين من العودة إلى سورية، وإطلاق حرية الرأي والتفكير، وفتح ثانوية شرعية في بانياس:

http://www.youtube.com/watch?v=g6Avw2ama30&feature=player_embedded#at=41

⁷⁵ <http://www.youtube.com/watch?v=BwNBHpiqTr0&NR=1>

البشرية، بجذب العديد من الخاملين والمترددين إليها. وفي حين انحصرت "جمعة الغضب" مجالياً في بؤرٍ محدودةٍ في كلٍّ من بانياس وحمص ودمشق، فإنَّ الرقعة المجالية لحركة الاحتجاجات قد اتسعت يوم "جمعة العزة"، ولاسيما في المدن الصغيرة والمتوسطة، فشملت إضافةً إلى مدن درعا التي تظاهر بعضها لأول مرة تحت شعار "فزة فزعة يا حوران" و"الله سورية حرة وبس"^(٧٦) كلاً من كفر سوسة وساحة المرجة والمزة- الشيخ سعد، في دمشق والنبل ودوما وكفر بطنا والمعضمية والكسوة وداريا في مدينة دمشق وريفها، وعامودا والقامشلي في محافظة الحسكة^(٧٧)، بينما امتدَّت في حمص إلى مدينة حمص وتلييسة وحماة التي انخرطت لأول مرة^(٧٨)، وكذلك إلى اللاذقية وجبلة وبانياس وغيرها. وتميزت حركة الاحتجاجات في هذه الجمعة بارتفاع كثافتها البشرية في بعض الأماكن، وفيما عدا درعا ومدنها التي كانت الأعلى كثافةً، كان أنداها من ناحية الحجم في الرقة (٢٠ متظاهراً)^(٧٩)، وأعلاها في حمص (٥٠٠٠ متظاهر)^(٨٠)، وفي دوما (٧٠٠٠ متظاهر)^(٨١). ويمكن تقدير عدد المحتجين في هذه الجمعة بنحو ٦٠ ألف متظاهر. وسننوّف بشكلٍ مكثّفٍ عند أهمّها من ناحية الانتشار المجالي وحجم المشاركة وشدّتها والجديد في دينامياتها أو ظواهرها.

قومة درعا وضحايا الصنمين

حدث في درعا ما يمكننا وصفه بـ"قومة درعا" الأهلية، التي تتخذ فيها الانتفاضة الشعبية شكلاً محدداً هو شكل القومة أو الانتفاضة الأهلية. ويشترك هذا الشكل المحدث مع قومات أو انتفاضات القرن التاسع عشر المدنية في أنه يتم على خلفية الاحتجاج العارم ضد السلطة، ويتميز عنها في أنه يوجّه هدفه نحو السلطة ورموزها. وقد قام هذا الشكل في شروط درعا الاجتماعية على التضامنية "الحوارانية" أو "الفزة" التضامنية العشائرية التي تحمل معاني النصر والدفاع الجماعي في أوقات الشدة. وهي فزة مدنية، بحكم أن عشائر

^{٧٦} لمشاهدة تظاهرة دال اتبع الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=zt0ZWHIHUoo&feature=player_embedded#at=54

أزيلت صور الرئيس السوري بشار الأسد من ساحة درعا العامة، لمشاهدة ذلك اتبع الرابط التالي:

http://www.youtube.com/watch?v=H9_BOjKD2wY

كما تم هدم نصب للرئيس الراحل حافظ الأسد، لمشاهدة ذلك اتبع الرابط التالي:

http://www.youtube.com/watch?v=9fIGn0y2_d0

^{٧٧} لمشاهدة تظاهرة عامودا اتبع الرابط التالي: <http://www.youtube.com/watch?v=yIh7h3Y6Mxo>

^{٧٨} لمشاهدة تظاهرة حماة اتبع الرابط التالي: <http://www.youtube.com/watch?v=ywviRWqZE7U>

^{٧٩} لمشاهدة تظاهرة الرقة اتبع الرابط التالي: http://www.youtube.com/watch?v=1Mc3__WXo7M

^{٨٠} لمشاهدة تظاهرة حمص اتبع الرابط التالي: <http://www.youtube.com/watch?v=Ht2lmdMvMk>

اتهمت بثينة شعبان المستشارة الرئاسية بعض المتظاهرين كما يلي: "ما حصل الجمعة الماضي هو أن مجموعة صغيرة انطلقت من الساحة القديمة في حمص باتجاه نادي الضباط القريب من ساحة الساعة في المدينة فكسرت النوافذ، وحرقت المحتويات ودمرتها، وقتلت أحد الأشخاص الذين كانوا موجودين في النادي" http://arabic.china.org.cn/china-arab/txt/2011-03/28/content_22234258.htm

وتشير المعلومات الميدانية لمساعد الباحث إلى أن المتظاهرين هاجموا نادي الضباط لإنزال صورة الرئيس منه، كما هاجموا مبنى شركة "سيرياتل" مكتفين بتحطيم زجاجها الخارجي.

^{٨١} للاطلاع على واقعة مهاجمة نادي الضباط بحمص قارن مع الرابط: http://www.youtube.com/watch?v=G2Vp-_T9kL4

لمشاهدة تظاهرة دوما اتبع الرابط التالي: <http://www.youtube.com/watch?v=Ht2lmdMvMk>

درعا كافةً متحضّرة منذ عقودٍ طويلةٍ، ودخلت كلها منذ الستينيات في وثيرة تمدّينٍ سريعة، لكن تكوينها الثقافي الجهوي تقليدي، ويرتبط بقوة الخصائص المحلية الثقافية. وبذلك انطلقت بعد عملية اقتحام الجامع العمري والتّكول عن تنفيذ المطالب المحلية دينامية جديدة ذات دفعٍ ذاتي هي دينامية التضامنية أو "الفرجة". وتحركت درعا ومعظم مدنها الأخرى في خضمّ المرحلة الجديدة للأحداث، مثل جاسم (٣٧٤٨٤ نسمة، وهي مركز ناحية جاسم التي يبلغ عدد سكانها نسمة ٤٦٨٧٨) وإنخل (٣٦٩٨٣ نسمة، وهي تابعة إلى ناحية الصنمين) وطفس (٣٨١٣٨ نسمة) ومركز مدينة الصنمين (٣١٠٧٧ نسمة، وتعتبر مركز ناحية الصنمين التي يبلغ عدد سكانها ١٣٤٠٦٧ نسمة)، ثم في نوى (مجموع سكان ناحيتها هو ٦٧٩٢٢ نسمة) وازرع (مجموع سكان ناحيتها هو ٢٩٢١٤٨ نسمة)^(٨٢)، ولنلاحظ أنها جميعاً من نوع المدن الصغيرة التي يعيش فيها الناس كأهلٍ مترابطين بعلاقاتٍ عائليةٍ وعشائريةٍ ومناطقيةٍ تمثّل ديناميات تضامنهم بوصفها ديناميات الأهل في أوقات الملمات. ولكن "فرجة" الصنمين كانت أشدها من ناحية وقوع الضحايا، إذ ردّ المتظاهرون على عملية إطلاق الرصاص في الهواء في البداية لتفريقهم ثم إصابة بعضهم، بحركة عفوية "هستيرية" تميّز الانفعالات الجماعية في لحظة تأججها، حيث هاجموا مقرّ الجيش الشعبي والمفرزة الأمنية، وأدّى ذلك إلى مقتل عددٍ من المتظاهرين^(٨٣).

١ - تظاهرة دوما: بروز أول "لجنة شعبية" محلية

انطلقت الحركة الاحتجاجية في "جمعة الغضب" في عددٍ من مدن الغوطة الشرقية بريف دمشق والقلمون، وكان أبرزها من الناحية الرمزية السياسية النسبية تظاهرة مدينة التل (٥٣٨٣٨ نسمة)، التي تقع في القاطع الجبلي خارج الغوطين على مشارف القلمون حين تغادر دمشق إلى الشمال الجبلي، والتي تميزت بهواها الناصري الإسلامي الجارف، وبكونها إحدى قلاع تيار اللواء محمد الجراح الناصري الإسلامي^(٨٤)، بينما كان أكبرها هو تظاهرة مدينة دوما (١٣٣٨٦٣ نسمة) التي تمثّل المركز المتروبوليتاني لمدن وبلدات الغوطة الشرقية، وشبه عاصمة محافظة ريف دمشق، ويبلغ عدد سكانها مع سكان ناحيتها ٢١٩٦٢١

^{٨٢} لمشاهدة إطلاق النار المكثف من قبل القوات الأمنية في ٢٥/٣/٢٠١١، اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=1C8Z2uUfEng>

^{٨٣} وكالة الأنباء الصينية شين خوا، "مستشارة الأسد سورية تتعرض لمشروع فتنة للنيل من مواقفها"، ٢٨/٣/٢٠١١،

http://arabic.china.org.cn/china-arab/txt/2011-03/28/content_22234258.htm

مما نقلته الوكالة عن شعبان قولها ما يلي: "ما حدث في مدينة الصنمين قرب درعا هو أن مجموعة مسلحين ومهربيين أتت إلى فرع الشرطة واستولت على أسلحة وذهبت إلى فرع أمن واستولت على الأسلحة أيضاً، ثم ذهبت إلى نقطة عسكرية وبدأت بإطلاق النار، ما اضطرّ الحراس للرد والدفاع عن أنفسهم وعن النقطة!"

^{٨٤} تتمثل هذه الميزة النسبية في مشاركة بعض أعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي المنشقين عن الشق الآخر من الحزب الممثل في الجبهة الوطنية التقدمية، والذين قدموا من صيدنايا للمشاركة في تظاهرة التل (مقابلة سبق ذكرها مع رجاء الناصر).

نسمة^(٨٥). وتُعتبر دوما لصيقةً بمدينة دمشق الإدارية، فهي لا تبعد عنها أكثر من ١٤ كم، وتتسم بتطورها المدني النسبي، وبتنوع مصادر ناتجها المحلي الإجمالي، وبقوة انخراطها في الشأن العام خلال عقدي الخمسينيات والستينيات، ولاسيما مرحلة الستينيات التي شكّلت فيها دوما أحد معاقل الحركة الشعبية السورية ضدّ نظام الانفصال (١٩٦١-١٩٦٣)، وتميّزت الحركة الناصرية فيها بقوتها الكبيرة حتى منتصف الثمانينيات. وكانت دوما مثل معظم ريف دمشق في الستينيات ناصرية بخلفية إسلامية، ولهذا كان نفوذ جناح اللواء محمد الجراح الناصري الإسلامي قوياً فيها، مثل نفوذه في النلّ وفي العديد من مناطق ريف دمشق الأخرى، في حين غدت بعد الثمانينيات إسلاميةً بخلفية ناصرية. وقد سجّلت تظاهرة دوما انخراط الفعاليات الدومية الجمعياتية والمهنية العلمية والتجارية والصناعية والفكرية والسياسية الحديثة نسبياً والتقليدية فيها، بما في ذلك انخراط الاتجاه الإسلامي المعتدل المتأثر بنموذج (حزب العدالة والتنمية) بتركيا، وبالالاتجاه الوسطي العام في الحركة الإسلامية، وفي جماعة (الإخوان المسلمين) السورية من جهة، والاتجاه الإسلامي الراديكالي القابل أكثر من غيره للجهادية. وقد كان وزن الاتجاه الأول أقوى بينما كان وزن الاتجاه الثاني محدوداً، لكن رغبته كانت جارفةً إبان التظاهرة في الهجوم على المنشآت العامة.

بدأت تظاهرة دوما الاحتجاجية فور الخروج من صلاة الجمعة في جامعها المركزي، واصطدمت بتصدي جماعاتٍ مسلحةٍ بالعصيّ والخناجر لها، لكن قوة زخم المتظاهرين جرفت تلك الجماعات بعصيها وخناجرها، وتمكّن هؤلاء - وكان قد وصل عددهم إلى نحو ٥٠٠٠ متظاهرٍ - من الوصول إلى ساحة الشهداء، والاعتصام فيها، وهم يهتفون بشعارات "سلمية" و"حرية" و"وحدة وطنية". كان شكل تنظيم التظاهرة التضامنية الدومية مع درعا على قدرٍ كبيرٍ من التماسك، ولعب فيه حزب الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي دوراً كبيراً نظراً لقوته التنظيمية النسبية في دوما التي يملك فيها أقوى منظمة شبابية في كامل ريف دمشق. وكان يملك حتى أواخر الثمانينيات تنظيمًا كبيراً في ريف دمشق يصل إلى ما لا يقلّ عن خمسة آلاف كادر، وتقلّص الآن إلى عدّة مئات، لكنهم متجذرون في مجتمعهم المحلي. وحدث لأول مرة في تاريخ الحركة الاحتجاجية الشعبية السورية الفتية تشكيل لجنة شعبية من وجهاء دوما، انتخب فيها الوجه الدوماني الناصري المعارض الدكتور عدنان وهبة رئيساً لها بوصفه وجيهاً محترماً وليس عضواً في المكتب السياسي للحزب. وتشكّلت لجنة شعبية شبابية تحت هذه اللجنة، تضطلع بالعمل الميداني، سيطرت عليها منظمة الشباب الاشتراكي التابعة للحزب^(٨٦). ولهذا كانت تظاهرة دوما الألفية مضبوطةً، فحيل فيها بين اتجاه السلفيين الراديكاليين وبين تدميرهم المنشآت العامة، كما حيل فيها بين بعض موظفي البلدية وبين حرق

^{٨٥} تقدير عدد السكان في سورية للعام ٢٠١٠ بالاستناد لعمليات حسابية على أساس نتائج تعداد السكان في سورية لعام ٢٠٠٤ ومعدلات النمو السنوي للسكان خلال الفترة (٢٠٠٤-٢٠١٠). وقد قام الدكتور محمد أكرم القش، مستشار التقرير الوطني للسكان الذي يعده الباحث كل سنتين، باحتسابها. وسنشير في الإحالات اللاحقة لحجم السكان إلى المصدر بما يلي: تقدير عدد السكان في سورية للعام ٢٠١٠.
^{٨٦} مقابلة في ١٢ نيسان/أبريل ٢٠١١ مع رجاء الناصر عضو المكتب السياسي لحزب الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي (المعارض)، والمتابع لتقارير تفصيلية عن الأحداث.

البلدية (ربما بهدف التستر على مخالقاتهم). وتشكّلت فيها لجنّتان، شعبية وشبابية، مثلاً أول حالةٍ سياسيةٍ جديدةٍ تتبثق من رحم الحركة الشعبية وليس من المكاتب البيروقراطية.

٢ - فتنة اللاذقية: على شفا اضطرابات طائفية

انطلقت تظاهرات اللاذقية في يوم "جمعة الغضب" من بعض الأحياء الشعبية التي تتسم بغالبيتها السنيّة، تحت هتافات "الله سورية، حرية وبسّ" و"بالروح بالدم نفديك يا درعا"، و"سلمية سلمية" و"حرية حرية" و"الله أكبر"^(٨٧). وفي حيّ الحرش، رفعت التظاهرة شعاراً وحيداً هو "بالروح بالدم نفديك يا درعا"^(٨٨). وفي الأحياء الشعبية المركبة مذهبياً مثل حيّ قنينص، حدثت الاشتباكات بالأيدي وبالقبضات بين سكّان حيّ واحدٍ قد غدواً قسماً متناحرين^(٨٩). حدثت هجمات متبادلة بين الأحياء السنيّة والعلوية وتّرت الوضع. وكانت سلطات الأمن تحاول فضّ ذلك بالأساليب التقليدية، وهي استخدام القنابل المسيلة للدموع وبإطلاق النار في الهواء، وبخرطوم مياه سيارات الإطفاء والبلدية. وكانت الحركة المدنية الأشدّ في التظاهر قد وقعت في حيّ السكنوري المتاخم لحيّ الرمل الجنوبي وهو من أفقر أحياء اللاذقية وأكثرها نشاطاً في الاحتجاجات^(٩٠). وشملت التظاهرات حيّ الرمل الجنوبي الذي هو مؤلّف بدرجةٍ أساسيةٍ ممّن ينحدرون من إدلب وجبل الزاوية ويعرفون محلياً بـ"الشريقية"، وهو ما يشير إلى عمق العلاقة التاريخية الاقتصادية والبشرية بين إدلب وجبل الزاوية وبين اللاذقية. وقد استتجد السنة بفلسطينيّ حيّ الرمل بينما استتجد العلويون بالجبل. وغدت اللاذقية على حافة الهاوية. ودفعت السلطات إزاء هذا الوضع الأحياء كافةً لتشكيل لجان أمن ذاتي محليّ تحول دون دخول أيّ أشخاصٍ "غرباء" أو "مشبهين" إليه لإثارة الفتنة. واستمرت مسؤولية هذه اللجان طيلة سنّة أيام (٢٥-٣٠ آذار/مارس)^(٩١)، لعبت القيادات التقليدية الدينية السنيّة والعلوية خلال هذه الفترة دوراً مهماً ومؤثراً في التهدئة، وكان الدور الاجتماعي الوحيد المتاح في تلك الظروف^(٩٢).

واجهت السلطات مساء يوم السبت ٢٦ آذار/مارس ٢٠١١ موجة الميليشيا الجبلية المنحدرة من "أزلام" مراكز القوى "الزيائية" العلوية التي كان قد شكّلها الحاج الدكتور جميل الأسد وغيره، إبان قيادته لعملية السيطرة على مرفأ اللاذقية وعمليات التهريب المختلفة من الموانئ العائمة وغيرها إلى الداخل، ووصلت هذه

⁸⁷ <http://www.youtube.com/watch?v=pxfnVrzJxb4&NR=1>

⁸⁸ <http://www.youtube.com/watch?v=jq5Y4t0TOIE&feature=related>

⁸⁹ من جواب الناشط بسام يونس المقيم في مدينة اللاذقية للباحث عن أسئلة مكتوبة في شكل نص استفساري.
⁹⁰ تخلط الوسائل الإعلامية وكذلك بعض الأهالي بينه وبين حيّ الرمل الجنوبي (ويسمى أيضاً رمل الفلسطينية أو مخيم الرمل) ويقع في الطرف الجنوبي للمدينة.

⁹¹ المعلومة حول لجان الأمن الذاتي المحليّ مستمدة من مراسلة بين الباحث وبين الكاتب والناشط محمد سيد رصاص المقيم في اللاذقية في تموز/يوليو ٢٠١١.

⁹² محادثات مباشرة أجراها الباحث مع الناشط بسام يونس في ٣٠ حزيران/يونيو ٢٠١١.

الميليشيات بالفعل إلى حدود مدينة اللاذقية، وحاصرت مداخلها بالفعل لتحطيم الأحياء السنية، وحالت السلطات دون ذلك، وردت الميليشيا إلى الجبل^(٩٣). لكن، كانت لا تزال هناك في المدينة نفسها عملية تعبوية داخلية يقودها رئيس إحدى المنظمات الشعبية، وتشكل "ذنباً" خطراً يستطيع تغطية أعماله بموقعه في السلطة المحلية ومن وراءها^(٩٤). ويبدو أنّ محاولة الاقتحام قد حدثت في كل من اللاذقية وبناباس وجبله، وتمّ ردّها. وجرّت محاولة إحداث حريقٍ مصعّرٍ في بعض شوارع المدينة ومحلاتها. ومما هو مؤكّد في ضوء تحليل النصوص أنّ عمليات حرق اللاذقية قد تمّت بفعل أفرادٍ يعتقد أنهم "منظّمون"، إذ تمّ إحداث هذه الحرائق في مناطقٍ شبه خاليةٍ من المارة أو المتظاهرين. ويظهر شريط مصوّر عملية اندلاع النيران في سيارة متوقّفة على الرصيف، وعدد المارة قليل وهو ما ينفي وجود تظاهرة تحوّلت إلى اضطرابات، وأصوات سيارات الإطفاء تبدو مسموعةً بوضوح. لقد حدث ذلك بشكلٍ مقصود بفعل فاعل كما يُقال، وليس في سياق اضطرابات^(٩٥). وفي ساحة الشيخ ظاهر التي غدت شبه خالية، أُحرقت بعض المحلات الخاصة^(٩٦)، وفي شارعٍ شبه خالٍ من المارة قام بضع عشرات من الأشخاص بحرق سياراتٍ متوقّفة، وجرّ سياراتٍ أخرى لحرقها، أو لقطع الطريق^(٩٧). وشكّل ذلك أساس اتهام السلطات في ٢٧ آذار/مارس ٢٠١١ لما يحدث في سورية كلها وليس في اللاذقية وحدها بأنه "فتنة طائفية"^(٩٨).

صدمة الثلاثين من آذار

تمّ التمهيد لخطاب للرئيس بشار الأسد بحملة تظاهراتٍ صاحبةٍ في معظم المدن السورية، ولاسيّما في المدينتين المليونيتين حلب ودمشق، وكانت هذه التظاهرات تهتف بحياته. ممّا لا شكّ فيه أنّ هناك عملية تنظيمية دقيقة كانت تقف خلف ذلك، لكن من المؤكّد أنّ كثيرين خرجوا في هذه التظاهرات من منطلق

^{٩٣} من أجوبة الناشطين محمد سيد رصاص وبسام يونس المقيمين في اللاذقية عن أسئلة الباحث.

^{٩٤} تأخّرت عملية إقالة رئيس اتحاد الفلاحين الذي تولى عملية التجبيش كثيراً إلى حدود ٥ تموز/ يوليو ٢٠١١، (رسالة بسام يونس).

^{٩٥} <http://www.youtube.com/watch?v=bJ38oGuzQsU>

^{٩٦} http://www.youtube.com/watch?v=8j-_qcbDaas&NR=1

و: <http://www.youtube.com/watch?v=-PV0xIG4T2I&feature=related>

^{٩٧} http://www.youtube.com/watch?v=GbaX8rRQi_c&feature=related

^{٩٨} اعتبرت مستشارة الرئاسة في سورية بثينة شعبان أن الأحداث التي تجري حالياً "تندرج ضمن مشروع طائفي يحاك ضد سورية، ولا علاقة له بالتظاهر السلمي والمطالب المحقة والمشروعة للشعب السوري". وقالت بثينة في لقاء مع الصحفيين في دمشق "ما تأكّدنا منه حتى الآن بعد أن اتضحت بعض الصور، أن هناك مشروع فتنة طائفية في سورية". ووجّهت بثينة أصابع اتهام إلى فلسطينيين بالتورط في أحداث وقعت في اللاذقية، وقالت "أتى أشخاص البارحة من مخيم الرملة للاجئين الفلسطينيين إلى قلب اللاذقية وكسروا المحال التجارية وبدأوا بمشروع الفتنة، وعندما لم يستخدم الأمن العنف ضدهم خرج من ادّعى أنه من المتظاهرين وقتل رجل أمن واثنين من المتظاهرين

<http://www.aljazeera.net/NR/EXERES/D81BB1C2-5075-4E42-83DE-9979863D66FF.htm>

عقدتهم الأمل على الرئيس في تلبية الإصلاحات^(٩٩). وقد ضخت الماكينة الإعلامية الرسمية وشبه الرسمية في ذئبك اليومين خطاباً يشترك في أنّ الرئيس سيلقي خطاباً يلاقي آمال الناس، وصرّح نائب الرئيس فاروق الشرع بأنّ الخطاب سيكون "مطمئناً" للناس^(١٠٠)، وتحدّث البعض عن ثورة سيعلنها بشار الأسد وسيقودها بنفسه للحيلولة دون أن تتطوّر سورية إلى مشهد عراقي أو ليبي.

لكن ما حدث بالفعل كان أكثر من مخيبٍ للأمل، لقد كان صدمةً وصفعةً، فلقد اعترف الرئيس بالجوانب الموضوعية الداخلية لضرورة الإصلاح. لكن ما هيمن على خطابه هو كلام "الفتنة الطائفية" و"المؤامرة"، وذكر مصطلح الفتنة الطائفية في الخطاب ١٧ مرةً، كما تواتر استخدامه لكلمة "مؤامرة". وأنهى الرئيس كلامه في مجلس الشعب بما فحواه: "إمّا أن نكونوا معي أو ضدي". ومزج بشكلٍ متداخلٍ بين حقّ المتظاهرين ومطالبهم المشروعة وبين إحباط مؤامرة المتآمرين، ولم يكن تكرر مصطلحات الفتنة والمؤامرة متناسباً مع تأكيدِه بأن المتآمرين يمثلون "القلّة" بل "القلّة القليلة" التي قامت "بالخلط بين ثلاثة عناصر: الفتنة والإصلاح والحاجات اليومية"^(١٠١). كما أنّ الرئيس أثار الناس عندما وصف قتلى المواجهات بأنهم "ضحايا" دون أن يستخدم كلمة "شهداء" التي استخدمها نفسه في خطابٍ سابقٍ في وصف من سقط في مواجهات درعا، والتي درج المحتجون على إطلاقها على قتلاهم الذين يسقطون على يد قوّات الأمن، مع أنه وصف "الضحايا" بأنهم "إخوتنا وأهلهم هم أهلنا". وهذه الثغرة في الخطاب هي ما حاول الرئيس أن يصحّحه من خلال الكلمة التوجيهية أمام الحكومة الجديدة في ١٤ نيسان/أبريل ٢٠١١، حيث اعتبر أنّ الجميع "شهداء سورية"^(١٠٢). وكانت الصدمة الشعبية كما صدمة النخب من خطاب الرئيس كبيرةً جداً، إذ جاء على العكس تماماً من التوقّعات، ولهذا شكّل الخطاب نهاية مرحلةٍ وبدء مرحلةٍ جديدةٍ في تسارع وتيرة الأحداث، ومثّل الحلّ الأمنيّ جوهرها في ضوء نظرية "المؤامرة" و"الفتنة الطائفية"^(١٠٣).

^{٩٩} دلت استقصاءات الباحث في حدود مدينة حلب أن بعض الطلاب في الثانويات والجامعة كانوا يتنادون فيما بينهم للخروج في المسيرة، ويقومون بذلك من دون ضبط مركزي. كما سأل الباحث عشرات من الذين شاركوا في المسيرات، ويفترض أنهم ناقدون على النظام بسبب وقوع ضحايا في المدينة إبان المواجهة مع الإخوان المسلمين في الثمانينيات عمّن دفعهم للمشاركة، فأجابوا إنّ مشاركتهم كانت ذاتية وطوعية.

^{١٠٠} أعلن نائب رئيس الجمهورية فاروق الشرع يوم الاثنين ٢٠١١/٣/٢٨ أنّ الرئيس بشار الأسد سيلقي كلمة هامة خلال اليومين المقبلين تظمن كل أبناء الشعب. وجاء ذلك عقب لقائه مع ووسكه المبعوث الصيني الخاص للشرق الأوسط. ديبيرس: "الرئيس الأسد سيلقي كلمة خلال اليومين المقبلين وسيعلن حالة رفع الطوارئ"، ٢٠١١-٣-٢٨، <http://www.dp-news.com/pages/detail.aspx?articleid=79197>

^{١٠١} للوقوف على خطاب الأسد في ٢٠١١/٣/٣٠ اتبع الرابط التالي: <http://www.youtube.com/watch?v=0ZfUcNFW9vs>

^{١٠٢} للوقوف على الكلمة التوجيهية للرئيس الأسد في ١٤ نيسان/أبريل ٢٠١١ اتبع الرابط التالي:

<http://www.syriantube.com/video/3945/%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%84%D9%85%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D8%AC%D9%8A%D9%87%D9%8A%D8%A9-%D9%84%D9%84%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AF-%D8%AE%D9%84%D8%A7%D9%84-%D8%AA%D8%B1%D8%A4%D8%B3%D9%87-%D8%AC%D9%84%D8%B3%D8%A9-%D9%85%D8%AC%D9%84%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B2%D8%B1%D8%A7%D8%A1-3>

^{١٠٣} يبدو أن قسماً كبيراً من الشارع كان غاضباً لكن ظلّ هناك قسم كبير آخر يراهن -على الرغم من خيبة أمله- على الخطاب يلتمس نوعاً من عذر الرئيس، ويتداول إشاعات كثيرةً عن أن هناك قوى معيّنة دفعت الرئيس إلى تغيير خطابه جذرياً في اللحظات الأخيرة. ويبدو أن هذه الإشاعات لم تكن من دون أصل، فقد عبّر أكثر من شخصٍ يعمل مع الرئيس عن حدوث هذا التغيير (مقابلات أجراها الباحث مع شخصيتين لم ترغب في ذكر اسمهما).

خلاصة تركيبية

أنذر المجتمع السوري من خلال حادثة "الحريقة" (١٩ شباط/فبراير ٢٠١١) اللاعبين فيه كافةً في سياق تساقط آثار الثورات في المجال الاجتماعي-السياسي السوري، بأنه قابل في كل لحظة للانفجار، ما لم يتم تنفيذ سياساتٍ ملموسةٍ تستبق انفجاره الكبير. وكما حدث في كثيرٍ من الانتفاضات والثورات في التاريخ، فإن عمود الدخان الكثيف ينطلق في أوقات الأزمات الشاملة من عود نقاب. وكان من أشعله للمفارقة هو تعسفات السلطة نفسها في منطقةٍ تعتبر محسوبةً تاريخياً عليها، وتتميز بتمثيلٍ قويٍّ لها في أجهزتها المختلفة، وهي منطقة درعا. هكذا كان من أشعل فتيل الولاة فوق برميل البارود المحترق هو أسلوب رئيس فرع أمني في التعامل مع وجهاء درعا ونسائها في شأن "أطفال" موقوفين، فردوا على إذلالهم وإهانتهم باستدعاء الفرعة الاجتماعية التقليدية والمناطقية.

وكشفت محاولة معالجة ذلك عن ملامح ازدواجٍ بين طريقتين في إدارة الأزمة، هما طريقة "القوة اللينة" وطريقة "القوة القاسية". وحدثت إبان ذلك "خطيئة" اقتحام "الجامع العمري" بدرعا التي استنفرت الحافظ الديني للمهمشين، وحولته من "تهيدة المظلوم المقموع، وقلب عالم بلا قلب" بلغة ماركس إلى "غضبة" و"قوة" مختلطة بالفقر والإفقار والتهميش والتعسفات التسلطية، سرعان ما ستتطور إلى أشكالٍ مختلفةٍ ومعقدةٍ في سيرورة الأحداث. فتعقد الوضع في درعا، وانتشر مثل بقعة الزيت في مدنها ثم في المدن الصغيرة والمتوسطة المهمشة التي كانت أكثر من دفع كلفة التسلطية الملبلة. وفي الثلاثين من آذار/مارس ٢٠١١ ألقى الأسد، في ظل التباين الكبير في قيادته حول سياسات إدارة الأزمة، خطاباً مخيباً للأمال كان السوريون ينتظرون تلبيته لتطلعاتهم، فانتتهت مرحلة وبدأت مرحلة جديدة في إطار سيرورة الأحداث.